بائع السخَّانات

العادلي، عمرو.
بائع السخَّانات: مجموعة قصصية /عمرو العادلي .
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2022.
190 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-124-6
ا– القصص العربية القصيرة.
أ– العنوان : 813.01
رقم الإيداع : 09295 / 2022
الطبعة الأولى : مارس 2022.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.
©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

بائع السخَّانات

قصص

عمرو العادلي

إلى أولئك الذين حجَّمتْ قوانين الرأسمالية أحلامهم،
ونزعت الريش عن أجنحتهم.

البحار تضيئها الشمس
أما اليابسة فتضيئها الحكايات.

{من حكاية السندباد البحري}

التَّلد

«بدا له السؤال عجيبًا، ولكنه لم يستطع التخلص منه،
كان يدق في رأسه كالناقوس؛ هل أعود؟!»

غسان كنفاني - *الأفق وراء البوابة*

وصلوا إلى المدينة بعد سفر طويل، رجال أربعة؛ أب وثلاثة أبناء، لا يُعرف من أين جاءوا بالتحديد، ربما كانوا في عنبر سفينة شحن، أو تسللوا من قطار بضائع. قال بعض الأهالي أنهم خرجوا من خلف الجبال، وقال آخرون أنهم قَدِموا من وراء البحر، كانت بشراتهم نحاسية غامقة، يمشون في صمت وينصتون أكثر مما يتكلمون، شأن كل الأغراب.

أجَّروا غرفة بمنافعها وتكوموا فيها، كانوا يعرضون خدماتهم على السكان بهدف الحصول على اللقمة؛ الأب ينقل عِزال عروسة أو يشيل الرمل والزلط، والابن الأوسط مع أخيه الأصغر يضربان شجر الزيتون بالعُصي في مزرعة قريبة، والابن الأكبر يجلب من الأسواق التوابل والليمون لمحل سمَّاك عند آخر الشارع.

كان الأب يتجول كثيرًا في دروب المدينة الجديدة بلا هدف مُعلن، بالنهار يتأمل وجوه المارة والظلال النائمة فوق البيوت، وبالليل يراقب النجوم المضيئة وهي تتحرك معه أينما ذهب، كثيرًا كان السكان يرونه رافعًا رأسه لأعلى، كأنه يقرأ خريطة مرسومة في قبة السماء.

في ليلته الأولى حلم بأنه يُبحر فوق سفينة صيد صغيرة، لها أشرعة بيضاء على شكل أجنحة.

كل ما عُرِف عن الأب بعد ذلك أن اسمه «عوض» ولم يُعرف اسم لأي من أبنائه.

كانت صحة العائلة الوافدة هي رأس مالهم، سيرتهم على الألسنة عطرة وطيبة، ليس لأنهم يفعلون الخير، ولكن لأنهم لا يتكلمون كثيرًا.

عندما بدأتْ التعاملات بينهم وبين جيرانهم لاحظ السكان أن لهجتهم غريبة، يتكلمون اللغة نفسها التي يستخدمها الجميع، لكن لكْنتهم مختلفة قليلًا، يضعون شَدَّة على أغلب الحروف، ويكسرون الحرف الأخير من كل الكلام تقريبًا، ما شفع لهم عند جيرانهم الجدد أنهم في حالهم، صامتون أغلب الأوقات، يخالفون كُليًّا ما اعتاد عليه أهل الحي من ثرثرة بمناسبة وبغير مناسبة.

في أحد الأيام اجتمع الأب بأبنائه الثلاثة وقال لهم:

«لنعيش في سلام دائم يا أبنائي يجب علينا أن نفعل شيئًا له قيمة، شيئًا يذكره لنا أهل الحي مدى الحياة».

ولما سأله أولاده عن هذا الشيء العظيم أشار الأب إلى تل طيني كبير، يلتمع في ضوء القمر، يمنع المارة من السير دون أن تتلوث ملابسهم:

«سنقوم بإزالة هذا التل».

فسأله ابنه الأصغر:

«وما الهدف من ذلك؟».

رد الأب:

«إن فعل الخير هدف في حد ذاته، وليس شرطًا أن يعود ذلك بفائدة مباشرة على فاعله».

فطرح الابن الأوسط سؤالًا:

«ولكن من الذي سيأجرنا عن هذا العمل الشاق؟».

قال الأب:

«محبة الناس هي الأجر».

وقف الابن الأصغر وفي يده كسرة خبز يقرض فيها:

«لكن هذا التل الطيني كبير، كبير جدًّا، أطول من جميع البيوت وأضخم، وليس بمقدورنا نحن الأربعة أن نزيله ولو بعد سنة».

يبتسم الأب:

«لو أننا وفَّرنا ساعتين كل يوم بعد الانتهاء من أشغالنا عند الناس، سيمكننا إزالته».

يلتقط الابن الأكبر خيط الكلام:

«لن تكفينا سنة».

ويقول الأوسط:

«ولا حتى ثلاثة».

فيرد الأب:

«ولماذا تنشغلان بعدد السنين والحساب، فليأخذ منا ما يأخذه».

كان يبدو من إصرار الأب أنه عقد العزم على العمل في التل وبات الأمر مقضيًّا، فقد بدأ بالفعل في اليوم التالي شراء المقاطف والكواريك بعددهم؛ أربعة.

في يوم العمل الأول قدَّم لهم بعض الجيران الشاي، وتعجب البعض الآخر دون أن يقدموا للعائلة الوافدة شيئًا، لكن أغلب السكان كانوا يسترقون النظر إليهم، يشاهدونهم وهُم يحاولون بأدواتهم الهزيلة إزالة تل طيني بهذا الحجم، وهُم يزعزعون الكيان الراسخ الذي تفتَّحتْ أعينهم عليه، يضرب الجيران كفًّا بكف وهم يستغربون من هؤلاء المجانين، فالتل موجود قبل أن يولد نصف سكان الحي، ولم يفكر أحد قبلهم أن يزيله من مكانه، أو حتى يرى أنه يمثل عائقًا من أي نوع.

بعد أيام من العمل تزمَّر الابن الأوسط:

«كنا نعمل ساعتين فقط، ثم أصبح هذا التل يستغرق آناء الليل وأطراف النهار».

فيُهدئه الأب:

«الصبر يفني الجبال».

يعلو صوت الابن الأوسط حتى يتعدى صوت أبيه:

«ويفني العمر أيضًا».

يقول الأصغر:

«الصبر الصبر! كلمات معسولة لن تتحول أبدًا إلى نقود».

يصمت الأب، فيتكلم الأصغر لكن بمستوى صوت أقل:

«وهل نشقى في هذه السُّخرة كي نشرب شايًا؟».

فيرد الأب:

«نحن نعمل من أجل الخير، تذكروا أن غيرنا يعملون في السخرة مرغمين دون أن يتقاضوا شيئًا».

يعود صوت الأصغر متهكمًا:

«المساجين فقط يمكن أن يفعلوا ذلك».

رد الأب بنبرة بدت رزينة:

«عندما يبتلي الله إنسانًا بمرض فإنه يعمل في السخرة لدى الأطباء ووصفات الأدوية والعطارة، لكن الله أعطانا الصحة فلماذا لا نُسخِّرها لشيء ينفع ويمكث في الأرض؟».

قال الأوسط:

«وهل تعايرنا لأننا أقوياء؟».

فقال الابن الأكبر مخاطبًا أخويه:

«في جميع الأحوال يجب علينا طاعة أبينا».

أشاح الأوسط بيده دون كلام، لكن الأصغر تكلم وهو يلف بإصبعه ثُفل الشاي في قعر كوبه:

«هذا التل سيسرق أعمارنا قبل أن نتمكن من إزالته».

يحاول الأب السيطرة على اندفاع أبنائه:

«أنا أحميكم من مخاطر الدنيا».

فيرد الأصغر:

«أنت تضعنا فيها دون أن تدري».

«أنا أنقذكم من أنفسكم، فأخطر ما في هذه الدنيا أن يكون هدفنا الأكل والشرب والنوم مثل أي حيوان».

يقول الأوسط:

«لماذا لا يكون هدفنا أن نصبح أغنياء؟».

«أو حتى أصحاب تجارة صغيرة، نشقى ونحصل على المقابل المناسب؟».

عندما تكلم الأصغر رد الأب:

«فعل الخير سيجعل هذه الأشياء سهلة وفي متناولكم».

يقول الأوسط:

«أنت تضيع أعمارنا».

«وصحتنا».

يساعده الأصغر دائمًا على تكملة المعنى.

يضيق بهما الأب ويقول:

«ما زلنا في موسم الإزهار وأنتم تحسبونه موسم الإثمار».

يسخر الأوسط بمط شفتيه.

ويقول الأصغر هازئًا:

«هئ».

يراقبهما الأكبر في صمت.

ويرى الأب أن عليه التدخل بتوضيح:

«لنُمهد ما نقدر عليه، حتى لو بقي من التل جزء فليزيله من يأتون بعدنا، سنكون في هذه الحال قد فتحنا ثغرة في الكتلة الطينية الكبيرة، هل نقف مكتوفي الأيدي وهذا التل يسد الطريق أمام الناس؟».

«ولماذا كُتب علينا نحن بالذات أن نقوم بعملية التمهيد؟».

قال الأوسط فرد الأب:

«إن هناك شيئًا سحريًّا في هذه الحياة يا أبنائي، فما من أحد يعرف الطريق إلا من يسعى للوصول إليه».

ظلوا يتجادلون حتى أخذتهم جميعًا سِنة من النوم.

لم يحدث شيء له أهمية بعد ذلك، عندما طلع الصبح مارسوا عملهم صاغرين في هدم أطراف التل بالمعاول والكواريك.

حين أعتم الليل توقف الابن الأوسط عن الحفر، بدأ يفكر من جديد في جدوى ما يفعلونه، فحدثه أخوه الأصغر عن أشياء جميلة رآها عندما ابتعد عن هذه المنطقة الفقيرة، تجول بالأمس في شوارع أخرى ومساكن أخرى تليق أكثر بهم، قضى ليلة أمس هناك دون علم أبيه.

قال لأخيه:

«خلف هذا التل بشارعين هناك حياة أخرى أجمل، أجمل بكثير، جنَّة والله يا أخي، جنة».

في الليلة التالية قالا لأخيهما الأكبر أنهما سيبتاعان شيئًا، ثم ذابا في الظلام.

طلعت عليهما الشمس وهما يتجولان، جذبهما الطريق فلم يشعر أي منهما بقدميه ولا بحساب الخطوات، رأى الأصغر سماء زاهية تستوعب أحلامه، ومروج لامعة شديدة الخُضرة كالزمرد، الجو في تلك المنطقة الهادئة خالٍ من الدخان، لا أصوات مزعجة ولا غبار يلوث الهواء، ورأى الأوسط قصورًا بيضاء متساوية، وحدائق مُنسقة

مثل الحُلي، مرَّ أمامهما عمال نظيفون يلبسون بِدلًا زرقاء، يقودون مكن كَنس يشفط مخلفات البشر والشجر والحجر، قال الأوسط لأخيه:

«ما كل هذا الخيال الذي يملأ الواقع؟».

لم يرد أخوه الأصغر، لكنه فكر في سؤال:

«لماذا توقف بنا أبونا هناك ولم يأتِ إلى هُنا؟».

قال الأوسط:

«لقد أحضرَنا أبونا إلى الدنيا فقط، أما خط سيرنا فيها فهو مسؤوليتنا نحن، لا بد أن تلدنا الأيام مرة أخرى».

رَد الأصغر وقد تحولتْ عيناه الضيقتان إلى فتحتين ملتمعتين:

«أشعر بأن أبانا يعيش حياة رجل آخر، فقد لمحته في الليلة الماضية يخرج من الغرفة، وعندما تأملتُ فِراشه رأيتُ جسده لا يزال ممددًا فوق الأرض».

«يحلم أبونا كثيرًا، لكنه غير مقتنع بأن الدنيا لا تعترف بالحالمين».

«لديك حق، ولكن يجب أن نعود قبل أن يعرف ما اكتشفناه».

بعد أسبوع من العمل وصل إلى الأب أن شخصًا مهمًّا يريد أن يقابله، كانت امرأة بدينة قد أخبرته بذلك وهي تقدم له الشاي مع قطع قراقيش معمولة في البيت، فقال لها:

«أهلًا أهلًا، أنا موجود مع أبنائي هنا كل يوم ساعتين، وربما ثلاثة، نبدأ من بعد العصر إلى ما بعد العشاء بقليل، ينورني، إكرام الضيف واجب، في الغد سأجلب معي موقد الجاز، أهلًا أهلًا، سنرحب به ونُضايفه، يشرب شايًا ويأكل إن أراد».

نظرتْ إليه المرأة بإشفاق وهي تتناول منه الأكواب الفارغة والصينية، كأنها تعاتب طفلًا ساذجًا على شيء اقترفه دون قصد.

في المساء اقترب الرجل المهم من الموقع وتأمل التل جيدًا، تصنَّع التباسط وهو يصافح عوض، كان الرجل يرتدي بدلة نظيفة، نظيفة جدًّا، وفوقها بالطو رمادي طويل، عوض وأبناؤه ملوثون بلُطع الطين، لا يجسر أي مغامر على الاقتراب منهم، صافحهم الرجل المهم واحدًا واحدًا، فور وصوله مُدتْ إليه أيادٍ كثيرة بالكراسي، جلس وهو ينظر بصمت إلى حذائه اللامع، أخذ يضغط على تفاحة آدم في عنقه كأنه يحلبها، ولَّى وجهه شطر التل وقال مخاطبًا الأب:

«أنت رجل هُمام، تعمل مع أبنائك وكأنكم مؤسسة خيرية كاملة».

لم يجد عوض ردًّا مناسبًا فقال وهو يمسح ناصيته بظهر يده: «عشت».

ثم عاد إلى عمله ولم يزد في الكلام، كان الابن الأكبر يتأمل الرجل الجالس فوق الكرسي وهو يضع ساقًا على ساق، يتابع سُحب الدخان التي تتبدد من فمه إلى الفراغ، يتعجب من السيجارة البُنية الكبيرة التي تهتز بين إصبعيه، أما الأخ الأوسط فتوقف عن العمل ليشم عطر الرجل الفواح، أعطى الأخ الأصغر لنفسه وقت راحة واقتلع نفسه من الحفرة التي يتهدَّل منها التراب، توقف عن تقطيع الكتل الناشفة بالكوريك وتعبئتها في المقاطف، جلس فوق جزء عالٍ متكور من التل، حاول أن يضع ساقًا فوق ساق مثل الرجل المهم فلم

يتمكن، أخرج من سيَّالته شيئًا، وضعه بين شفتيه وأشعل الكبريت في مقدمته، عُقب سيجارة عثر عليه أثناء الحفر، كان يشعر بزهو كبير عندما يغادر الدخان فمه ويشم رائحة التبغ، مجرد تشبهه بالرجل المهم أثار خياله بشكل ما، بعد سحب نفسين فقط قبض أخوه الأكبر على ياقة جلابيته:

«أنت هكذا ستُغضب أبانا».

«أبونا يشغل نفسه بأشياء خيالية ولا يهتم بنا».

لم يصل صوت الابن الأصغر إلى الأب، فقد كان عوض مندمجًا في تعبئة الأتربة والحصى في المقاطف، اقترب الرجل المهم من أخيهم الأصغر، سحب العُقب الحقير من بين شفتيه وألقى به في الطين، فضّ سيلوفان سيجارة بُنية كالتي في فمه وعلقها بين شفتيه، أخرج علبة ثِقاب كبيرة من جيب البالطو وأشعلها له، سحب الولد أنفاسًا كأنها السِّحر، تقرفص بعيدًا عن الطين والمقاطف والعرق، ترك عالم الشقاء من خلفه وحَلَّق وحده في دنيا غير الدنيا.

بعد قليل سمع الأب صوت الرجل المهم:

«كنتُ أريد أن أحدثك بعيدًا عن موقع عملكم، هيا بنا نبتعد عن الشيل والحط».

مد يده وسحب أباهم من الجزء الصغير الذي هدموه، ابتعدا وغابا عن المكان ساعة، ثم عاد عوض وحده، خرج أبناؤه الثلاثة ووقفوا أمامه صفًّا واحدًا، لم يتغير في الأب سوى شيئين، عرقه الذي جفَّ، وسيجارة بُنية كبيرة تطل من خلف أذنه.

في المساء، جمعهم الأب حول براد شاي كبير فوق موقد الجاز، ثم حكى لهم عما دار بالأمس مع الغريب:

«يريدنا الرجل المهم أن نتوقف عن إزالة التل».

هلل الابن الأصغر وقال:

«أخيرًا؟ كثّر الله خيره».

وانتفض الأكبر:

«سنفعل ما يأمرنا به أبونا».

وقال الأوسط:

«وما الذي يمنع أن يكون الخير في كلام أبينا والرجل معًا؟».

يرد عوض عليهم وهو يصبّ الشاي:

«أنا لا أعرف لماذا يمكن أن يعترض إنسان على عمل الخير؟».

يعود الأخ الأوسط للكلام:

«يا أبانا، الخير ليس له وجه واحد فقط، ما المانع أن يكون ربنا أراد راحتنا فأرسل إلينا هذا الرجل الغريب».

حك عوض شاربه المتهدل فوق فمه وفكر طويلًا قبل أن يقول:

«ولكنني لن أرتاح أو يهدأ بالي إلا بإزالة التل كاملًا، حتى ولو كلفني ذلك ما تبقى من عمري».

قال الأصغر:

«وما ذنبنا نحن في ذلك؟! يا أبانا، إن كنت قد وصلت إلى حالة من الوجد الإلهي، فأولادك يريدون أن يعيشوا حياتهم».

زغده الأخ الأكبر، خشَّن صوته وقال:

«لا تنس أن أبانا شيخ كبير، في الخامسة والخمسين، هو الذي علمنا كل شيء بعد موت أمنا، كنا مثل القطط العمياء، ولولاه لتشردنا في الشوارع».

خرجتْ آهة ساخرة تميل إلى شخرة من فم الأصغر:

«وماذا ترانا الآن غير ذلك؟».

«اخرس».

قال الأكبر فتدخل الأب:

«أريدكم فقط أن تفهموا الحياة أكثر».

قال الأصغر:

«أنا لا أريد فهم الحياة، أريد أن أعيشها».

وعاونه الأوسط:

«يا أبانا، أنت تكلمنا عن أشياء مبهمة بالنسبة إلينا، في ماذا سيفيد عملنا التطوعي هذا ونحن نحتاج إلى كل قرش؟ نعمل مجانًا منذ أسبوعين، ورغم ذلك يلبس الشحاذون في الحي ثيابًا أفضل منا، ويأكلون طعامًا أشهى وألذ، وعندما أبحث عن عملهم، تقريبًا، لا أجدهم يعملون في شيء».

يُخرج الأصغر عقبًا جديدًا ويُشعله، بعد نفسين يتدخل في الحوار مرة أخرى بشكل أكثر سخرية:

«لأن الشحاذين ليس لهم أب حكيم مثل أبينا».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يشتد فيها أوار الحوار بينهم بهذا الشكل، فقال الأب لنفسه: «ربما كبرتُ وغابت عني أشياء كثيرة لم أعد أفهمها» وفيما كان يُطفئ القنديل استعدادًا للنوم، سرح في ظلام الغرفة وكأنه يحلم، اتسعت المساحة الضيقة وأصبحتْ دنيا كبيرة، كيف لي أن أوفِّقُ بين أبنائي، لم يعودوا صغارًا كي ينفذوا أوامري دون تفسير مُقنع، كلما قلت لهم «لحاجة في نفس يعقوب» سخروا من كلامي.

تبددتْ مناجاة عوض مع أبخرة الشاي حتى راح في النوم، رأى أطياف وجوه كان يعرفها في زمن فائت، مرَّت زوجته به في غفوته بشكل عابر، حتى أنه عندما استيقظ لم يستطع التفرقة، هل من رآها هي زوجته بالفعل، أم أنها امرأة أخرى تُشبهها؟

في الصباح أمسك الأب بصدغه، ألم الأضراس شديد ولا يمكن تحمله، سحب الابن الأكبر الصرة التي يضع فيها أنواعًا مختلفة من التوابل، مد يده لأبيه بحفنة قرنفل، سكَّنتْ الألم بشكل مؤقت، فوقف الأوسط والأصغر في ركن يحمدان الله بسبب الإجازة التي مُنحت لهما هذا الصباح، فالأب المريض لن يستطيع اليوم ضرب معول واحد في التل، خرج الأوسط لينقل مخزن خردة مقابل مبلغ مالي كبير، واختار الأصغر أن يزور مع بعض شباب الحي كازينو ترقص فيه امرأة، لم يُخبر أحدًا بخط سيره غير أخيه الأوسط.

أصر الأب على أن يساعده أبناؤه في تكملة إزالة التل، لكن قراره جاء متأخرًا، فقد تركه ابناه ولم يبق معه إلا ابنه الأكبر، يغلي له الأعشاب لتسكين ألم الأسنان.

خرج عوض وفي ذيله ابنه الأكبر، كان يحمل مقطفين وكوريكين، عند وصولهما رأى الرجل المهم يجلس في سيارته ينتظرهما، لمحه الأب لكنه تجاهله، في المرة الفائتة لم يفهم نصف كلامه، قبل أن يلقي المقطف في الحفرة وينزل وراءه ناداه الرجل:

«أنت، ها، نعم أنت».

ثم التفت إلى ابنه الواقف من خلفه:

«وأنت أيضًا، تعال، أريدكما دقيقة».

كانت السيارة كبيرة ومرتفعة عن الأرض، لا يقودها الرجل بنفسه، بل لديه سائق يرتدى ملابس فاخرة سوداء ويغطي رأسه بكاب منقوش عليه شِعار، ناداهما ليجلسا بجواره على الكنبة الخلفية، الجو حار، والهواء البارد الخارج من مكيف السيارة يصنع في القلب بهجةً وفي الرأس خدرًا وفي الأعصاب رخاوةً، قال الأب:

«ولكننا لم نأخذ معنا المقاطف والكواريك».

ابتسم الرجل المهم وقال:

«لا تخف، لن يسرقهما أحد، فلا يريد إنسان أن يشقى بمثل هذه الأشياء».

بعد أن تخطت السيارة شارعين توقف السائق بهم، نزل الرجل المهم ومن خلفه الأب وابنه الأكبر، أدخلهما صاحب السيارة مطعمًا فاخرًا، الأب تتعثر خطاه وهو يصعد السلالم الرخامية المضيئة بالنيون، والابن ينظر إلى نفسه في كل مرايا المكان الفسيح، يشم الروائح الشهية ويتخيل أصناف الأطعمة المطهوة.

طلب لهم الرجل المهم وجبات كبيرة، أكبر من أن يأكلها شخصان فقط، وضع الجرسون أمامهما ديكًا روميًّا، فأشار له الرجل وأمره أن ينزل لهما صينية بها كيلو ضاني مشوي وزوجا حمام، فأكلا دون كلام، مسح الأب يديه في بعضهما البعض كما يفعل عادة، ومسح ابنه يديه في ملابسه، طلب الرجل المهم لهما القهوة في أكواب كبيرة، ثم بدأ يتكلم:

«هل شبعتما؟».

«الحمد لله».

قال عوض:

«جاحد من يطلب أكثر من ذلك».

يلاحظ الرجل أن عوض يمسك بصدغه كثيرًا:

«هل تشعر بألم؟».

«الأسنان جازاها الله، حاجة صعبة، عظام في الفم، وجعها لا يُطاق».

يُخرج الرجل من جيبه شريط برشام بحبات وردية، يضغط عليه بإبهاميه فيلفظ حبتين، يقدمهما إلى عوض ويناوله كوب ماء:

«خُذ، ستكون أفضل خلال دقائق».

يتناولهما عوض ويشرب وراءهما الماء.

يبتسم الرجل ويوجه كلامه إلى الأب:

«لم يُخلق الإنسان للألم والشقاء، بل خُلق ليستمتع بالحياة».

حمد عوض ربنا لأن ولديه الأوسط والأصغر غائبان ولم يسمعا مثل هذا الكلام، قال وهو يتأمل أركان المكان:

«هي أشياء تُكمل بعضها يا سعادة البيه، شكرًا لك على هذا الطعام، لكن للأسف، لن أستطيع رد هذه العزومة أبدًا، فأنا وأبنائي على باب الله».

يُشعل الرجل سيجارته البُنية التي صار يُعرف بها:

«بإمكانك أن تردها بسهولة، وأفضل منها إن أردت».

مسح الأب شاربيه:

«وكيف يحدث هذا يا سعادة البيه؟».

«بأن تسمع كلامي جيدًا، أنا أُقدِّر لك سعيك في فعل الخير، ولكنك، وأرجو أن تفهمني، بإصرارك على إزالة التل، تعبث في مكونات هذا الحي، تتصرَّف في خِلقته التي أرادها له الله».

«وهل يريد الله هذا التل؟».

«لو لم يرده لكان قد أزاله دون مساعدة من أحد».

توقف مخ عوض عن استيعاب الكلام ولم يرد، كان يشعر بأن كلام الرجل لا يؤدي إلى معنى مفهوم، فكر طويلًا ثم شبك أصابعه وأرسى ذراعيه فوق المنضدة التي كانت تحمل الطعام، قال للرجل المهم:

«كان أبي يدق الخبز الناشف فوق حجر ويُطعم به الطير، وأنا أريد أن أتبع خُطاه بفعل شيء فيه الخير للجميع دون انتظار أجر».

ابتسم الرجل المهم بعد أن سحب نفسًا بطيئًا من سيجارته:

«ومن قال لك أن ما تفعله هو الخير؟».

رأى الابن الأكبر أن تدخُّله في الحوار أصبح مناسبًا:

«يا بيه، أبي يريد أن يزيل هذه العثرة الكبيرة ليتمكن الناس من عبور الشارع بأمان، سيتعرف السكان بجيرانهم من الشوارع الأخرى دون عوائق، سيُمكِّنهم ذلك من الاستمتاع بحياة أفضل».

هنا وجد الرجل المهم ضالته عندما استلم الابن خيط الكلام من أبيه:

«أبوك رجل طيب، لا شك في ذلك بالطبع، لكن يا ولدي الحبيب من قال لك أن إزالة التل ستعجب الناس؟! لماذا تتخيل أن ذلك بالنسبة إليهم سيكون شيئًا رائعًا وجميلًا، هل دخلت إلى أنفسهم؟! أنا أؤكد لك أن تصوراتكما غير صحيحة بالمرة، فأبوك سيربك الناس أكثر، لقد اعتادوا على وجود التل في طريقهم، الكبار يلفون حوله مثل المقام حتى يَصِلوا إلى عملهم، والأطفال يسلكون الشوارع الأخرى حتى يمكنهم تفاديه وهم ذاهبون إلى مدارسهم، أغلب الناس يعرفون مواقع بيوتهم بسببه، ومن خلاله يهتدي الغريب إلى العنوان المطلوب دون عناء، فلو أن هذا الكيان الكبير تمت إزالته من أمامهم سيرتبك الناس، لن يتذكروا كيف كانوا يعيشون قبل ذلك، ومؤكد سيدعون عليكم، ومن المحتمل أن يكون دعاؤهم سببًا في دخولكم جميعًا النار، وربما يعادونكم مدى الحياة، لا أريد أن أقول يحاربونكم، أو ربما تُطردون من الحي بأكمله».

وسعت عين الأب وهو يحدق في ملامح الرجل ولا يصدق ما يسمعه:

«هل سيحدث كل ذلك بسبب إزالة شيء يتعثر فيه الناس؟».

«سيحدث أكثر من ذلك، صدقني».

صاحبتْ كلمات الرجل ضربة قوية من قبضة عوض فوق المنضدة، فقال الابن الأكبر:

«يا سعادة البيه، هل يمكنك أن تشرح لنا كيف سيعترض الناس على نظافة حيّهم من هذه القاذورات؟».

أشار الرجل المهم إلى الجرسون، طلب براريد شاي بالنعناع، فوضع أمام كل واحد برادًا وكوبًا ليصب منه لنفسه، قال وهو يقلب لهما الشاي بنفسه وينظر إلى الأب:

«أبوك كان يُطعم الطير ببقايا الخبز، هذا شيء عظيم ومُشرِّف لأي إنسان، لكن أباك ليس عائشًا بيننا الآن، على أيامه لم يكن هناك مصانع في كل مكان، والمدينة لم تكن مُقسمة إلى مناطق وأحياء، وكل حي له كبير مسؤول عنه».

توقف الابن عند هذا الحد، فهو لا يفهم أغلب ما يقوله مُضيفهما، تدخَّل الأب محاولًا استيعاب كلام الرجل المهم:

«ما لنا نحن وتقسيم المدن والأحياء؟! أنا لا أفهمك».

«أنا يا ريس عوض المسؤول عن هذه المنطقة».

اتسعت ابتسامة الرجل المهم واندمج الابن في طعم الشاي، تجهَّم الأب قليلًا وهو يقول:

«أنت كبير هذا الحي، تظهر عليك أمارات الأبهة بالطبع، لا يُنكر ذلك إلا أعمى، إذًا يجب عليك أن تساعدنا في عملنا لا أن تنهانا عنه، هذا شيء غريب جدًّا، لماذا ترفض أن نزيل التل لنريح الناس؟! فمن المفروض أن هذا عملك أنت يا سعادة البيه، قل لي، لماذا ترفض عملنا التطوعي؟ فنحن نعمل ذلك لوجه الله، لا نريد جزاءً ولا شكورًا».

فقال مُضيفهما:

«أنا أدافع عن أبي مثلما تدافع أنت عن أبيك».

جاهد عوض في محاولة فهم ما يقصده الرجل المهم:

«وما علاقة أبيك بالموضوع؟».

فقال الرجل المهم بصوت واثق مشُبَّع برنَّة:

«لأن أبي هو الذي أقامه».

«أقام ماذا؟».

«التل».

«أبوك يا سعادة البيه؟».

«مثلما كان أبوك يطعم الطير، فكل إنسان يفعل ما يراه مناسبًا».

«ولكن لماذا أقام أبو سعادتك تلًّا أمام الناس بهذا الحجم الكبير؟».

«كان أصغر من ذلك بكثير، رُبع حجمه تقريبًا».

«ثم؟».

«ثم أكملته أنا».

«أكاد أُجن، لماذا بناه أبو سعادتك، ولماذا أكملته أنت يا سعادة البيه؟».

بدأ صوت الأب يعلو، وصوت الرجل ينخفض:

«سأقول لك وأرجو أن تحفظ السر».

«هل تعني أن ما تقوله يعتبر أمانة؟».

«نعم».

«إذًا قُله يا سعادة البيه، سأحفظ السر، أنا لا أخون الأمانة أبدًا».

نقر الرجل المنضدة بأظافره، بدأ وجهه يحتقن ويأخذ لونًا قرنفليًّا:

«لقد خلق الله الناس طبقات، مؤكد أنت تعرف بأن ذلك مذكور».

«نعم، خلق الله الناس فوق بعضهم طبقات، أعرفُ ذلك».

نسي عوض وجع أضراسه نهائيًّا، كان يستمع إلى كلمات الرجل بعقل صافٍ وتركيز:

«وهؤلاء الناس كُثر لا يمكن عدهم، فهم مثل الدود في الأرض وحبات السنابل في الحقول».

«ها».

«لذلك، فقد خلق الله أيضًا المصطفين من الناس ليقودوا الجماهير الكبيرة لما فيه الخير للجميع».

كان الابن الأكبر يرفع حاجبيه مع كل جملة ينطق بها الرجل تقريبًا، لكنه لا يفهم شيئًا، قال الأب:

«يا سعادة البيه، أنا رجل لا أملك عقلًا كبيرًا مثلك، أرجو أن تأخذ بالك من ذلك الفرق، أنا لا أفهم ما تقصده بكلامك هذا، لا أعرف إلا الطرق المستقيمة والكلمات القليلة، صدقني، أنا لا أعرف ماذا تريد أن تقول».

توقف الرجل عن نقره المتوتر فوق سطح المنضدة وقال:

«لا بد من إقناع الناس بأننا نعمل ما فيه الخير لهم، نخطط لما في صالحهم».

«ها».

«فنضع لهم العقبات أولًا، ثم، وفي لحظة معينة، هوب، نقنعهم بأننا سنزيل تلك العثرات من أمامهم».

«رغم أنكم أنتم الذين وضعتموها!».

«رغم أننا نحن الذين وضعناها، هل فهمت؟».

«فهمتُ ولكنني غير مقتنع بهذا اللف والدوران».

بدأ صبر الرجل المهم ينفد:

«أنا لا ألف ولا أدور، أنا رجل خيِّر، بدليل أنني رأيتكما شاحبين بسبب سوء التغذية، فجئت بكما إلى هنا وطلبتُ لكما كل هذه الأصناف من الطعام».

«سبق أن قلت لك أنني وأولادي على باب الله، لا يمكننا رد مثل هذه العزومات، وعلى العموم، شكرًا لك على إطعامنا».

«أنا لا تهمني الوجبة، فهذا أقل شيء يمكن أن أقدمه لكم، أنا أحدثك عن التل، لا بد أن تتوقف عن إزالته أنت وأبناؤك، هذا ليس طلبًا».

«وماذا يكون؟».

اشتدت أوتار عنقه:

«أمر».

«وإن لم أتوقف عن إزالة التل؟».

«تذكر أنك وعدتني، وهذه أمانة».

«لم أعدك بأنني سأخالف ضميري يا سعادة البيه، كل ما يمكن أن أفعله لك، ألَّا تأتي سيرتك أبدًا على لساني أو لسان أحد من أبنائي الثلاثة».

ضيَّق الرجل عينيه وألقى ببعض أوراق مالية من فئات كبيرة فوق المنضدة، ثم تركهما وانصرف.

«هل تعرف الطريق إلى التل يا بُني؟».

سأل الأب الجرسون الذي انشغل في جمع النقود المتناثرة فوق المنضدة:

«آخر الشارع يمين يا عم».

فقال عوض موجهًا كلامه لابنه الأكبر:

«لا تنتبه لما قاله الرجل، أنا لا أعطي عقلي لغيري مهما كلفني ذلك من ثمن، وإن غادرتُ هذه الحياة في أي وقت أكمل أنت ما بدأناه ولا تسمع لمثل هذا الكلام، فهناك بشر لا يحس بهم الأحياء ولا يُحسبون على الأموات، أتمنى ألا نكون منهم يا ولدي».

عادا إلى التل، عاين عوض عدة العمل فوجدها كاملة بغير نقصان، نظرة صلبة صوبها تجاه ابنه:

«يبدو أننا سندخل حروبًا كبيرة خلال الأيام القادمة».

جلس الابن بالقرب من التل، لم يشمر وينزل للعمل، أقنع أباه بالعودة إلى الغرفة:

«وخمَ جسدي، وأسنانك تؤلمك يا أبي، وأخواي سيعودان من أعمالهما متعبين، رأيي أن نعتبر اليوم إجازة، نرتاح فيه من الشقاء، يوم واحد لن يحدث شيء».

قال عوض بعد أن أثقل الطعام بدنه وارتخى الكلام فوق لسانه:

«لنأخذ اليوم إجازة لأجل خاطرك».

عند عودتهما إلى الغرفة كان الابن الأصغر يتقرفص فوق مصطبة النوم الطينية، والأوسط يطهو شيئًا على الموقد، قال الأصغر:

«لماذا لم تشيلا لنا منابنا من الوليمة يا أبي».

«وليمة؟».

«لقد عرفنا بما حدث، سكَّن الرجل المهم ألم أسنانك وأطعمك أنت وأخي ديكًا روميًّا، من أجل ماذا؟ هه، من أجل أن يريحنا، علينا فقط أن نتوقف عن هدم هذا الشيء الكريه المُسمى بالتل، لقد استوقفنا الرجل وحكى لنا كل شيء، لماذا لا نترك له صنمه يعبده كيفما شاء، ولنعش نحن حياتنا كيفما نشاء أيضًا؟».

حاول الأخ الأكبر أن يدافع عن أبيه كما اعتاد، لكن أخاه الأصغر أصبح مثل قطارٍ انطلق من المحطة ولم يعد باستطاعة أحد أن يكبحه، تقدم عوض من الموقد وقال:

«يبدو أن عملكما اليوم كان مُربحًا، الرائحة على النار شهية».

فما كان من الابن الأصغر إلا أن قام فجأة وضرب بقدمه الحلة الصغيرة فأطاح بها من فوق الموقد:

«هذه آذان بهائم، اشتراها أخي بأجر يوم كامل من الشقاء، هذا هو ما تحلم به لنا، آذان بهائم يا أبي، ما يرميه الناس؟!».

ابتعد الأخ الأوسط وصار على حافة الحوار، فاقترب عوض من ابنه الأصغر الهائج وصفعه، لحظات صمت متتابعة مرت، لا يُسمع فيها إلا الشهيق وضربات قلوب أربعة رجال، احمر وجه الأصغر وصفَّرتْ أذنه، خرج دون أن يتبجح أو يفتح فمه، وجلس الأوسط فوق مصطبة النوم الطينية منكمشًا في ملابسه، وأطرق الأكبر برأسه فلمح أذن بقرة منزوعة الشعر ملقاة تحت قدميه، تنصت لصمتهم، أما الأب فجلس ملتصقًا بالجدار، نكَّس رأسه بين ركبتيه حتى طلع النهار، وعندما حاول ابنه الأكبر أن يوقظه لم يرد عليه.

في الصباح، اكتشفوا أنه مات.وكان ذلك أول ارتباط حقيقي بالمدينة، فقد أصبح لهم فيها مقبرة.

بعد مراسم دفن لم تستمر طويلًا، طلب الرجل المهم مقابلة أبناء عوض الثلاثة، كان اللقاء هذه المرة في مكان يشبه العزبة، حدائق فاكهة وورود وحقول خضراء بلا نهاية، يقف على رأس المائدة خدم من كل الأجناس، تقدمت امرأة بدينة من الأخ الأصغر وسألته عن طعامه، فوسَّع ما بين ذراعيه وقال:

«أكبر ديك رومي في مزرعتكم».

وسألت الأوسط فطبَّل على بطنه وقال:

«بعد أن نتقاسم الديك الكبير أنا وأخي عليكِ بالشراب، أريد أن أنسى أيام الشقاء».

وسألت الأكبر فقال:

«لا أريد شيئًا».

بدَّل الرجل المهم ملابسه المتأنقة بعباءة فضفاضة وأخذ يوزع أوامره:

«اسمعي، هاتي لكل منهم ديكًا روميًّا، وشرابًا كثيرًا، لكل منهم زجاجة، لا، بل زجاجتين، أريدهم أن ينسوا اليوم كل الأحزان».

تقدم خادم آخر بشرته بيضاء وتبدو عليه وجاهة أكثر من ضيوفه، قال له الرجل المهم:

«بعد الطعام والشراب أدخِل علينا مباهجك المُخترعة، آخر ما توصلتَ إليه من روقان البال».

كان الرجل يخطط لأن تستمر سهرتهم حتى الصباح، لكن الأخ الأكبر تسحَّب من المجلس، استوقف أول سيارة خارج العزبة وعاد إلى الغرفة، انتظر أخويه فلم يعد منهما أحد، يومًا، اثنين، أسبوعًا، اثنين، بعد شهر عاد الأخ الأصغر وقال له بصيغة تهديد:

«الرجل المهم يقول من ليس معنا فهو ضدنا، وقد قررتُ أن أكون معه، وأخوك أيضًا قرر ذلك معي».

انصرف أخوه بعد أن أبلغه بالرسالة، وظل الأخ الأكبر في حيرة، لا يملك شجاعة معاداة الرجل المهم، وفي الوقت نفسه لا يمكنه التنازل عن تكملة ما كان أبوه يحلم به، قال له أخوه قبل أن ينصرف:

«لا يمكنك تكملة ما بدأه أبونا، فالدنيا تتغير، ومن لم يسايرها سيهلك».

لم يناقشه الأخ الأكبر في هذا الأمر طويلًا، لكنه أخذ معوله ومقطفه وحمل الكوريك فوق كتفه، كان يزيل من التل كل يوم كتلة تراب تكفي عشرة مقاطف، لم يهتم كثيرًا بالرائحة المنفرة المنبعثة من الركام، تحت الطين سراديب حشرات ومخابئ ديدان، كان بعض العشب قد نَمَا في شقوق الجزء المهدم. رسم خطًّا بالطباشير ليحدد حصته اليومية من العمل، كان يريد أن يقنع نفسه بأنه ينفذ وصية أبيه كما ينبغي، وفي الوقت نفسه يخشى التقصير، فعمله منفردًا لا يؤثر في نقصان التل بشكل ملحوظ.

ظلت الحال تسير برتابة، يُعبئ الأخ الأكبر عددًا محدودًا من المقاطف ويفرغها بعيدًا، أحيانًا كان ينام فوق مقطف ملآن، فيرى التل يتحرك ببطء، كجسر باخرة، يستغفر عندما ينتبه، يترحم على أبيه ويُكمل عمله في صمت.

تشابهت الأيام في كل شيء، حتى جاء صباح زاره فيه الرجل المهم بنفسه، ذهب إليه عند التل، وكالعادة، امتدت إليه أيادٍ كثيرة بكراسي للجلوس، قال للأخ الأكبر:

«أنت الوريث الشرعي لأبيك، لذلك فأنت تعمل بإخلاص».

لم يصدق الأخ الأكبر كلامه، لأنه لم يكن يعمل بالمعنى المعروف للعمل، فقط يُعبئ نصف المقطف ويجلس بجواره طويلًا قبل أن يحمله ويُفرغه بعيدًا، لكنه هز رأسه مؤمِّنًا على ما قاله ضيفه المهم، عدم رده شجع الرجل أن يكمل الكلام:

«كان جدك يطعم الطير، قال لي أبوك هذه المعلومة، ولذلك قرر هو أن يزيل التل، أما أنت، فلماذا تفعل الشيء نفسه؟».

«لأن أبي كان يفعله، وأنا أكيد من أن أبي لا يفعل شيئًا خطأً».

«هل تقصد أن إزالتك للأتربة والطين فيها الخير للناس ومثل هذا الكلام؟».

«نعم».

أشعل الرجل المهم سيجارته البُنية وقال للأخ الأكبر:

«أنت رجل قوي وناضج، إن لم أكن مُخطئًا فقد وصلت إلى سن الزواج، بناء الأسرة شيء مهم، لكنك لا تريد أن تبني بيتًا، لماذا؟ لأنك منشغل بالهدم، قضاياك خيالية ولا تهم أحدًا غيرك، فهذا التل سيبقى، سيعيد الناس بأنفسهم كل الحمولات التي عبأها أبوك وألقى بها بعيدًا، القضية أكبر مني ومنك، صدقني، المسألة أقرب لقدر منها لمجرد فكرة».

خرج الأخ الأكبر من الحفرة بقفزة واحدة، مسح ناصيته بكم قميصه:

«منافع الناس ومصلحتهم في إزالة التل، هكذا قال أبي قبل أن يموت، وأنا أصدقه».

ترك الرجل كُرسيه وأعطى ظهره للأخ الأكبر، أخرج من جيبه بوقًا يشبه القرن ونفخ فيه، أصدر البوق صوتًا وصل إلى آخر الشارع، تجمّع الناس خلال ثوانٍ، فوقف الرجل المهم فوق حجر وخطب فيهم:

«يريد هذا الشاب الطيب أن يزيل التل من طريقكم، قال إنه سيفعل ذلك ليريحكم، فما رأيكم؟».

ولأنه لم يسأل شخصًا واحدًا فقد تباينتْ الردود ووصلت إلى حد الخلافات، قال رجل منهم:

«التل! وهل يجوز إزالته أصلًا؟».

فرد عليه أحدهم:

«لا، لا يجوز».

كان الأخ الأكبر يتابع الناس وهم يتجمعون من الشوارع القريبة، أخذ ينصت إليهم، فقالت سيدة تسحب ابنها:

«لا يجوز أن يصبح هذا المكان خاليًا، فما نعرفه أفضل من المجهول».

اقتربتْ امرأة شابة وردتْ عليها:

«وهل آذاكم التل في شيء حتى تفكروا في إزالته».

قالت عجوز:

«حرام يا أولاد حرام، ربنا يهديكم».

وسُمع صوت شيخ يقترب وهو يتخبط بين مناكب الناس:

«إن إزالة التل واجب على كل السكان، لعلنا نحيا بشكل أفضل».

فرد عليه شاب نحيف:

هذا يعتبر كفرًا، ما أوجده الله لا يمكننا أن نعبث به».

قالت السيدة الشابة مرة أخرى:

«وما الذي يمكن أن نضعه مكان التل، هل ستتركون موقعه عاريًا؟».

فعاد الشيخ يقول:

«عندي ألف فكرة بديلة عن التل، لكن لنساعد بعضنا البعض أولًا حتى نزيله».

قال شخص وجد أمامه الفرصة ليدلي برأيه:

«فلنزِله، ولكن لا بد أن نبحث عن بديل أولًا، هذا هو رأيي، والله أعلم».

صاح الشيخ فاشتبك معه الشاب بالأيدي، وقالت المرأة التي كانت تسحب ابنها كلامًا اعترضت عليه السيدة العجوز وأمسكتْ بخناقها، بعد لحظات اختلطت ملابسهما بالتراب، لما التقى الجمعان رُفِعتْ عُصي وطارت فِرد أحذية، استل أحدهم سكينًا ونزف الدم من ذراع شخص عابر في الزحام، وقف الرجل المهم فوق الحجر وقال لهم:

«اهدأوا، اهدأوا».

لم يستمع إليه أحد بسبب الهيصة والصراخ، فنفخ في بوقه الذي يشبه القرن مرة أخرى ليفض شمل الناس، توقفوا عندما وجدوا من يقودهم إلى شيء محدد، هدأت الأصوات وعادت الأرواح الثائرة للاستكانة داخل أبدانها مرة أخرى، بعد قليل، وبمنتهى الهدوء، انصرف كل منهم إلى حال سبيله، عاد السكون إلى الشارع وكأن شيئًا لم يكن، يلف الناس حول التل عندما يعبرون الطريق، لا يفكرون في

المسألة أصلًا، كأنهم كانوا يحلمون بأنهم رأوا رجلًا ينفخ في بوق يشبه القرن.

قال الرجل المهم للأخ الأكبر:

«ألم أقل لك، يجب أن تفكر في الأمر جيدًا فأنت لا تريد خيرًا بإزالة التل، بل تريد فتنة».

فرد الأخ الأكبر وهو غير مقتنع أن بوق الرجل المهم يمكن أن يجمع الناس ويفرقهم بهذه السهولة:

«أنت لم تقل الحقيقة للناس، دعني أنا أوصلها بمعرفتي».

«بسيطة، قل لهم أنت كما تريد، هه، قُل إن هذا التل شر يجب استئصاله، جرب، لن تخسر شيئًا، وعِّهم، اخطب فيهم، يا أبناء الحي الكرام، لقد نويتُ أن أكمل ما بدأه أبي عوض، اذهب وقل لهم، ثم عُد إليَّ وأخبرني ماذا تغير».

أخذتْ الحمية الأخ الأكبر فابتعد عن المقطف والكوريك والجبل الطيني الشاهق، استوقف رجلًا يجر عربة يد محملة بالخضراوات، قال له:

«أنا الابن الأكبر لجاركم عوض، هل تتذكره؟ الرجل الذي أراد أن يخلصكم من التل، كان أبي يفعل الخير أليس كذلك؟ لقد قررتُ أن أُكمل ما بدأه، ما رأيك يا عم، هه، قل لي ما رأيك؟».

كانت أيادي المارة متشابكة خلف ظهورهم وهم سائرون، سارحون، يفكرون في شيء آخر غير ما يقوله الأخ الأكبر، لم يرد عليه صاحب عربة اليد، كأنه أطرش، يستمر الرجل في دفع عربته،

يعبر الشارع كالطيف حتى يختفي في زحام الناس، يجري الأخ الأكبر كالممسوس عندما يلمح امرأة عجوزًا تسير بعكازها، يقول لها:

«يا أمي، هل لكِ أن تدليني على شيء، أريد أن أستشيرك في أمر، لا أريد منكِ إجابة بكلمات مطولة، فقط هزي رأسك بالموافقة أو الرفض، فوق وتحت موافقة، يمين وشمال رفض، هل تقبلين أن أخلصكم من هذا التل الذي يمنع عنكم رؤية الحياة الحقيقية؟».

تلوح العجوز بيدها تجاهه كأنها تهش ذبابة، ولا ترد، يبدو أن العجائز لا يهتمون إلا بماضيهم فقط، ، يجب أن أسأل الشباب، يقول الأخ الأكبر لنفسه عندما يلمح شابًّا يقاربه في السن، يستوقفه، يُعرفه بنفسه:

«أنا الابن الأكبر لعوض، هل تعرفه؟ الرجل الذي أزال قشرة التل ولم يمهله القدر أن يُكمل إزالته كليًّا، لقد أوصاني بأن أتم ما بدأه، فما رأيك، هل أتم ما بدأه يا أخ؟ هه».

لم يعره الشاب أدنى اهتمام، ابتسم في وجهه بامتعاض، كأنه يُخاطب شخصًا صاحب عاهة.

عاد الأخ الأكبر مهزومًا إلى الرجل المهم، فسأله:

«ها، ماذا قال لك أهل الحي؟».

لقد رأيت بنفسك ماذا قالوا».

«أريد أن أسمع منك».

«السكان جميعًا كأنهم نائمون في بيت حديدي مُغلق على أفكارهم القديمة».

«وما الجديد؟ أعرفُ بالطبع أن ذلك سوف يحدث، أردتُ فقط أن تُجرب بنفسك، فأنت شاب مُخلص ونافع، ولكن تنقصك الخبرة بالناس والدراية بتصاريف الحياة».

رفع الرجل المهم عصاه الأبنوس وأخذ يشرح وكأن خريطة حربية مرسومة أمامه على الهواء:

«أنت لديك طاقة، وعليك أن تستغلها، وأنا لديَّ فكرة لا يستطيع تنفيذها غيري، سأحوِّل طاقتك إلى فلوس».

«فلوس!».

رشق الرجل عصاه في الأرض، كان حريصًا على ألا تنغرز مقدمتها الفضية في الطين:

«لي صديق مهم، أصدقائي كلهم من الأشخاص المهمين، رئيس بنك التسليف الزراعي، سأتوسط لك عنده، خمسة فدادين تستصلحها، سيكون بإمكانك عندئذ أن تزرع وتحصد وتبيع، وستتزوج».

يرن الكلام في دماغ الأخ الأكبر، لماذا لا يوافق؟ وبالمرة ينسى مسألة التل التي أكلتْ من راحته وشربتْ:

«ومن أين لي بالأموال؟».

«لا تشغل بالك، لديَّ كل ما تحتاجه».

«وهل ستعطي أخويَّ فدادين مثلي؟».

«أخواك لا يحتاجان إلى امتلاك أرض، فلا يود أحد منهما أن يشقى، أنا أعرف ما يحتاجان إليه بالضبط».

بعد يومين فقط من هذا الحوار بحث الأخ الأكبر عن أخويه، فاكتشف أن الأوسط يعمل سائقًا للرجل المهم، والأصغر يرعى إسطبل خيول عند أطراف المدينة، مرَّ عليه أخوه الأوسط بالسيارة:

«اركب».

«إلى أين؟».

«سأسلمك الفدادين الخمسة من بنك التسليف الزراعي، فهذا أفضل لك من وقفتك في هذه الأوحال، أعرف أن الآباء يورثون أبناءهم أملاكًا عقارية أو فلوسًا في البنك، أما أبونا فأراد أن نرث عنه هرمًا طينيًّا، اركب يا أخي اركب».

في السيارة حكى له أخوه كيف حصل على هذه الوظيفة الأبهة:

«السائق العجوز لم يعد يرى الطريق جيدًا، فعلَّمني الرجل المهم كيف يُحرك هذه العصا للأمام والخلف، وهذه الدائرة توجِّه السيارة في الانعطافات، أما الدواسات النائمة أسفل القدم فهي التي تأذن بتحريك هذا الوحش الحديدي، شغلانة سهلة، ونظيفة».

لم يرد عليه أخوه الأكبر، فأكمل:

«لا أشم هنا إلا العطور، أزور أماكن كثيرة بهذا الصندوق، وليس بالضرورة أن يكون الرجل المهم معي، عرفتُ أشياء لم يكن بوسعي معرفتها مع أبينا ولو بعد مئة عام، أما أخونا الأصغر فقد أصبح ريِّسًا لخيول العزبة، لا يفعل شيئًا طوال اليوم إلا تمشية خمسة جياد في الشمس والتفاوض على أسعار العلف، لقد ارتحنا بعد موت أبينا، وأفضل شيء فعلته أنك ابتعدت مؤخرًا عن خرافة التل».

بمجرد انتهاء أخيه من الكلام قال الأخ الأكبر:

«تتحدث عن أبينا وكأنه رجل فاسد!».

«ليس فاسدًا، لكنه ورطنا، كذب عندما كان يقول أننا بخير ونحن نتسول اللقمة والغطاء من الجيران، أنا لستُ غبيًّا لأضيع عمري مجانًا في تنفيذ وصية لن تعود عليَّ بأي نفع».

ضرب الأخ الأكبر مقود السيارة بكفه ضربات متتالية:

«أوقف هذا الشيء، أوقفه فورًا، سأنزل، قلت لك سأنزل حالًا».

وقفتْ السيارة ونزل بالفعل منها، لوح أخوه السائق بيده وانطلق دون أن ينتظر ردَّه، عفَّرتْ الأتربة التي خلَّفتها العجلات وجه أخيه الأكبر، عاد سيرًا على قدميه حتى وصل إلى الشارع، وقف يخاطب التل كأنه إنسان:

«أما آن لك أن تنطق حتى أعرف الصواب من الخطأ؟».

كان السابلة من حوله يروحون ويجيئون كأنهم أشباح، كل منهم يحمل أغراضه أو يُحدث شخصًا يسير بجواره، لكن أحدًا لم يشغل باله بقضية التل، بذل الأخ الأكبر جهدًا كبيرًا كي يتمكن من استعادة هدوئه، فكر قليلًا بدماغ أخيه، وضع نفسه مكانه بشكل مؤقت، بالفعل، ماذا لو أن أباهم كانت له تداخلات مع الخلق مثل أغلب الآباء؟ مصالح وتربيطات وتبادل منافع، الموظفون في الشارع أبناء موظفين يقبضون المرتبات أول كل شهر، وأصحاب المحلات كان آباؤهم أصحاب محلات يبيعون ويشترون، والمتشردون والشحاذون من نسل متشردين وشحاذين أيضًا، فمن الطبيعي أن يكون أبناء رجل يزيل التل هُم أشخاص يقضون ما تبقى من أعمارهم في إزالة التل، ولكن ما هو ذلك الشيء الذي كان أبي يدافع عنه؟

سأل عن مكان عمل أخيه الأصغر، ما دفعه للبحث أنه يريد فقط التحدث إلى أخيه، أو يبكي، كان يريد أن يبكي أمام أحد.

وصل إلى أخيه الأصغر بعد بحث شاق، تغيَّرتْ ملامحه خلال فترة قصيرة، اتخذتْ بشرته لونًا برونزيًّا، ظهرت عضلات في ذراعيه ولمعت بشرته بالدهون والسمون، بانت عليه التغذية، كان يمسك بأحزمة سرج تنتهي في رأس حصان، توقف عن المسير عندما رأى أخاه الأكبر واقفًا في طريقه:

«اسمع، ليس لأنك أخي الأكبر يجب عليَّ أن أسمع كلامك، فهذه الأيام قد انتهت».

فترة صمت مرَّتْ

«لقد أصبحت أفكر منذ الآن في أن يكون لديَّ وكيل، شخص يقوم بأعمالي، مع الأيام لا بد أن يمتلك الإنسان وكيلًا يمنحه منزلة أعلي عند الناس، يجب أن تفكر بهذه الطريقة يا أخي، ودعْك من طريقة أبينا التي لا تُورث إلا الفقر»

شاركه الأخ الأكبر في الإمساك بمقود الحصان:

«جئتُ إليك فقط لأحدثك عن حالي، أنا لا أرغب في تسلم الفدادين الخمسة من بنك التسليف الزراعي».

«أنت حُر، افعل ما تشاء، لكن لا تحكم علينا، أنا أعرفك جيدًا، يموت أبونا فترتدي عباءته، أريد أن أنبهك، لن ينفع هذا الأسلوب معي».

«أنا ما جئتُ إلا لأسألك عن مسألة تخصني وحدي، رفضي لتسلم الأرض من الرجل المهم، فما رأيك؟».

بقفزة واحدة امتطى الأخ الأصغر ظهر الحصان، وضع قدمه في الرِّكاب بخفة ودربة، ظل يحوم حول أخيه كما يفعل قائد حربي مع أسير أعزل:

«سأقول لك بكل ثقة اقبلها، فالمنح الكبيرة لا تأتي مرتين، اهرب بجلدك من فخ التل، لو أن الشيطان عاد للتجسُّد من جديد فلن يخرج عن صورة هذا الصنم الطيني الكئيب، ولا تنس أن أبانا قد مات، كنتُ سألتمس لك العذر لو أنه لا يزال حيًّا، لا حجة لك اليوم، عش حياتك يا أخي واتركنا نعيش، الحي أبقى من الميت».

تركت يد الأخ الأكبر سرج الحصان وابتعد دون كلام، سار متهدلًا حتى وصل إلى الطريق العمومي، استقل عربة بالنفر حتى وصل إلى التل، ودون تفكير طويل أخرج العدة التي ورثها عن أبيه، غيَّر ملابسه وشمَّر عن ساعديه، نزل إلى الوحل ووسَّع الثغرة المُقتطعة من التل بالكوريك، كان يحفر ويُكوم ويعبئ، ثم يحمل ما عبأه في المقاطف ويلقي به بعيدًا، يريد أن يدفن مخاوفه في العمل، فهو وحده يعمل مكان أربعة أشخاص، في اليوم التالي ضاعف ساعات العمل إلى ثمانية، أراد أن يُشعِرُ نفسه بأنه عائلة متكاملة، الأب ساعتان، وهو ساعتان، وأخواه كل واحد ساعتان.

لا يعرف أحد من سكان الحي كم عمل الأخ الأكبر في إزالة التل، منهم من قال يومًا أو بعض يوم، ومنهم من قال شهرًا، ومنهم من قال أنه يراه عامًا بعد عام، يزيل الأجزاء الطينية ويُبدل فوق كتفيه المقاطف الملآنة بالأتربة، لكن بعض السكان قالوا إن الأخ الأكبر لم يعمل أصلًا، لكن الرجل المهم -كثَّر الله خيره- هو الذي وعدهم

وأوفى بالعهود، فهو الذي طلب إزالة التل باللوادر، وهو الذي أمر بتحميل مخلفاته في سيارات النقل القلاب، ولذلك فقد انتخبه أهل الحي بالإجماع للمرة السادسة في البرلمان، ليقضي معهم ما تبقى من حياته بالزي النظيف والحذاء المُلمَّع والسيجارة البُنية المغلفة بالسيلوفان، كان يحضر إلى المنطقة مرة وهو يركب سيارته ومعه سائق يظل قابعًا خلف فاميه السيارة، ومرة وهو يركب حصانه، يمسك بالسرج في زهو، يتقدمه سائس لا يعرفه أحد من أهل الحي.

بعد مدة طويلة بعدد السنين والحساب، ظهر بجوار بقايا التل شاب صغير، قيل أنه في السابعة عشرة، عرَّف نفسه أنه ابن الأخ الأكبر، قال إن أباه أوصاه قبل موته بأن يحضر إلى هُنا، ورسم له فوق صفحة كراسة ما يشبه الخريطة، أكبر مَعْلم فيها هو تل طيني لم يُزَل بالكامل، وإن أراد فِعل شيء يتباهى به أمام أبنائه فلا بد أن يُكمل إزالته، اشترى الشاب في الليلة نفسها مقطفًا كبيرًا وكوريكًا بيد خشبية طويلة ومعولًا، كان عندما يجن الليل ويقل رواح السابلة ومجيئهم، يشمِّر الشاب عن ساعديه غير مهتم إلا بوصية أبيه.

وذات مساء شاق ضرب كشاف سيارة قوي في عينيه، واقترب منه رجل غليظ الملامح:

«البيه عاوزك».

اقتلع الشاب نفسه برشاقة من الحفرة، وخرج بيه صغير مائع من سيارة كبيرة سوداء ترتفع عن الأرض:

«أي خدمة؟!».

«ماذا تفعل في بقايا التل؟».

«أزيله».

«ولماذا تزيله؟».

«وصية أبي».

«هل تعرفني، هل سمعت من قبل عن أبي؟».

«لا يا باشمهندس، لا أعرفك ولم أسمع عن أبيك من قبل».

«أنا الشاب الأهم، وأبي كان الرجل المهم، لكنه مات».

«أهلًا بك، وربنا يرحم والدك، أي خدمة؟!».

«أريدك دقيقة».

مد الرجل غليظ الملامح يده وسحب الشاب من الحفرة، ركبا السيارة وغابا لدقائق، ثم عاد الشاب الوافد ولم يتغير فيه سوى شيئين، عرقه الذي جف، وسيجارة بُنية كبيرة مغلفة بالسيلوفان تطل من خلف أذنه، المقطف والكوريك والمعول مركونان عند جانب الطريق، وسيارة كبيرة يرتفع صندوقها الحديدي القلاب لتُفرغ حمولتها، أتربة مبتلة تعيد التل لما كان عليه في البداية، فيستعيد مرة أخرى مكانته القديمة في أنفس الناس.

يسحب حفيد عوض السيجارة البُنية من خلف أذنه ويتأملها، لم يُشعلها، ظل ينظر إلى الناس من حوله وهم يعبرون التل الذي يتكون مرة أخري أمام أعينهم، يتفادونه في رواحهم ومجيئهم دون أن يلتفت إليه أحد.

طوى حفيد عوض ورقة الكراسة التي رسم له أبوه فيها خريطة بالمكان، وضعها في جيبه وهمَّ بأن يترك موقع العمل ويعود إلى حيث جاء، وقبل أن يترك الشارع مرَّ به أحد السكان، رفع يد الشاب الممسكة بالسيجارة وأقحمها في فمه، أخرج من جيبه كبريتًا، أشعلها وقال له:

«أنا أعرفك، أعرفك جيدًا، أنت حفيد عوض، دخِّن السيجارة ولا تفكر كثيرًا، دخِّن يا رجل، دخِّن».

بائع السخَّانات

«أنا لست بحاجة لاسترجاع ظروف الموت،
فقد كنت هناك»

جوان ديديون - عام التفكير السحري

إجابات المتهم عن أسئلة المحقق هي التي تعنينا في هذه القصة، فهو مجرد موظف ضئيل يعمل في شركة بيع السخانات، ضئيل لأن أحدًا لا يراه، ضئيل لأنه لا يرى نفسه، وكذلك لأنه لن يتمكن من تغيير حياته أبدًا، أما لماذا إجابات الموظف هي التي تعنينا، فلأن الأسئلة التي سيوجهها له المحقق مكررة ومملة، ولن تضيف جديدًا إلى عمق القصة، كلمات محفوظة تدرب عليها المحقق طويلًا، يمكننا القول أنه تعلمها بالتلقين من رؤسائه في النيابة عندما كان يعمل معاونًا، أما الموظف المتهم فكانت إجاباته طازجة مثل الصباح، مبعثرة مثل القش، عشوائية مثل الحياة، يجلس أمام المحقق شبيهًا بكبّة صوف، خائف من مجرد الكلام، ببساطة، يمكننا أخذه عينة لهؤلاء البشر الذين لا يملكون موهبة التعامل مع الناس، كما يمكننا أيضًا أن نعتبره حالة صغيرة مبهمة لا يجوز تعميمها، فكثيرًا كان يقول أثناء التحقيقات أن معارك مختلطة تدور في رأسه، لكن أشخاصًا آخرين يديرونها من الخارج.

ظل الموظف يقول للمحقق «يا سيِّدي» في كل جملة تقريبًا، لا يُعرف أين سمعها كي يكررها بهذا الشكل المبالغ فيه، ربما التقطها من فيلم أجنبي أو قرأها في رواية بوليسية، عندما تأكد الموظف من غرابة كلمة «يا سيدي» بدَّلها فورًا إلى «يا بيه» ثم سكت عن الكلام،

لم يسمع منه المحقق بعد ذلك سوى «عاوز محامي.. عاوز محامي» ربما تأثر بهذا النداء أيضًا من مشهد درامي رآه في التليفزيون.

أول الأسئلة التي طرحها المحقق على الموظف كانت كالتالي:

المحقق:

لقد عثرنا على قتيل في غرفتك، فما قولك؟

الموظف:

قتيل! قتيل، أنا يا سيِّدي لا تربطني أي علاقة بقتلَى، لقد صُدمت بمقتله مثل جنابك تمامًا، حاشى لله أن تكون لي علاقة بهذا الموضوع.

المحقق:

أريدك أن تبدأ قبل ذلك، قبل أن تمد يدك إلى الماسورة الحديدية وتضرب بها رأس الرجل، لا تخف مني، سأسمعك حتى تنتهي من كلامك، لن أفعل مثلما فعلتُ بالأمس، لن أنفعل عليك، تكلم، لا تخف، ها، تكلم يا رجل.

الموظف:

كل الحكاية يا سيِّدي أننا كنا نعيش في غرفة بمنافعها أنا وابني الصغير، فزوجتي طلبتْ الطلاق منذ مدة طويلة، وتحديدًا بعد أن أنجبتْ الولد مباشرة وتركته لي، قالت أنني أصبحتُ منذ الآن مسؤولًا عن هذا الروح الصغير، وقالت أنها مضطرة لأن تتركني إلى الأبد لأنني ضعيف الشخصية، وأيضًا لأنني موظف، طلَّقتُها من سكات، فقد كانت مُحقة في ما قالت، وذات صباح عدتُ من وظيفتي وعرفتُ أن الشخص الذي مات في غرفتي أضر بابني الوحيد، آذاه،

ومؤكد أن ذلك مكتوب أمام سعادتك في الأوراق، كان هذا الجار يُدعى «حلمي» لكن الناس تناديه بـ«توتة» ولا أعرف بالطبع لماذا أطلقوا عليه هذا الاسم، فأنا موظف كما هو مُثبت في الأوراق أمامك في شركة السخانات، لا تشغلني مثل هذه الأشياء التافهة، ما يهمنا في الحكاية أن حلمي الشهير بتوتة اعترض طريق ابني الوحيد، كان الولد صغيرًا ولا يعرف شيئًا عن مفارقات الحياة وألاعيبها، ويمكن أن تضيف يا سيدي لديك بعض المعلومات عن أبيه الذي هو أنا، موظف منضبط لا تخرج منه العيبة أبدًا، وقد تسلم درع الموظف المثالي مرتين، لذلك، فأنا لم أُعلم ابني اللَّوع أو اللف والدوران منذ أن بدأ نطق الكلام، خصوصًا أنه نشأ بغير أم، فأصبح يشبهني في كل شيء، نسخة مصغرة مني.

المهم.

طلب هذا الرجل ذات يوم من ابني أثناء عودته من المدرسة أن يشتري له علبة سجائر، وفي منطقتنا يمكن لرجل كبير أن يأمر طفلًا صغيرًا بمثل هذه الأشياء، ويجب على الصغير سماع الكلام، لكن الولد قال له أن أبي موظف في شركة السخانات ولا أشتري سجائر لأحد، فما كان من حلمي الشهير بتوتة إلا أن صفع الولد بالقلم على وجهه، جُن جنوني وفشلتُ في أن أبرر لنفسي مثل هذا الفعل، ولكن لأنني موظف منضبط فلم أستطع فعل شيء، وكما يليق بموظف ذهبتُ إلى قسم الشرطة وعملت محضرًا بالواقعة، قابلني عند البوابة عسكري ناشف، يعلق فوق كتفه بندقية لم يستخدمها طيلة حياته «أين يعملون المحضر يا دُفعة؟» فأشار بذراعه وهو يخشى على زهرة

سيجارته من الوقوع، دخلت إلى زحام الناس وانتظرتُ دوري في الكلام، سألوني عن اسم الرجل الذي أريد عمل محضر ضده، فقلتُ: حلمي، اسمه رباعي يا بني آدم، قلتُ: لا أعرف، فمن أين لي بمعلومات لا يعرفها إلا موظف في السجل المدني؟ وأنا يا سيِّدي موظف في شركة السخانات. بعد عناء عملت المحضر ووقَّعتُ على اتهامي للرجل الشهير بتوتة.

عدتُ إلى البيت لأنام مطمئنًا، مُعتقدًا بأن العسكري الناشف الذي يعلق البندقية فوق كتفه سيحميني من بطش حلمي إذا لزم الأمر، لكن قسم الشرطة كان بعيدًا، بيني وبينه دكاكين كثيرة وشوارع ومواصلتان بالميكروباص، أما حلمي فقد كان أقرب إليَّ من مجرد نداء.

وذات مساء مشؤوم غاب الولد يا سيِّدي، ذهب لشراء مقرمشات من البقَّال ولم يعد، نزلتُ إلى الشارع كالمجنون أبحث عنه، فرأيته آخر النهار عائدًا وقد تمزقت ملابسه، يجهش في بكاء جَرح زوره، ومن خلفه جاري حلمي الشهير بتوتة، أخذ يقول وكأنه أسطوانة لا تحمل إلا هذه الكلمات «عملت فيَّ محضر، عملت فيَّ محضر». فقلتُ له «وهل الدنيا سايبة؟ آه، عملت فيك محضر». وما كان من الرجل إلا أن سحب الولد، ابني الصغير المصاب والمرعوب وأخذ يكيل له الزغد ويؤرجحه في يده كما الخرقة، عندما اقتربتُ منه وحاولتُ أن أنهاه عما يفعله أمسكني باليد الأخرى، أخذ يؤرجحني معه والدنيا كلها تتفرج علينا يا سعادة البيه، تبعثرت كرامتي في أعين المارة، وتفرج علينا العيال الذين يلعبون الكرة في الشارع، الدنيا كلها كانت

تحترمني لأنني موظف في شركة السخانات، لكن بعد هذه الواقعة لم يعد يهابني أحد، عندما حاولتُ تهديده لم يخرج صوتي من حلقي، فما تعلمته من الوظيفة خلال ثلاثين عامًا هو إطاعة الأوامر والخوف على وظيفتي من الضياع، علمتني الوظيفة أن أكبر مصيبة يمكن أن تقع على رأس إنسان هي الاستغناء عن خدماته وطرده من العمل، ففي تلك الحالة سينقطع المرتب الذي يضمن الأمان، كنتُ أمشي بجوار كل حيطان الدنيا، فأصبحتُ غير مرئي طوال فترة خدمتي، لا أعترض على شيء وافق عليه رؤسائي، وتعرف المنطقة كلها أنني بلا صوت تقريبًا، لا أعترض ولا أقوَى على نقد ما لا يعجبني بشكل صريح، ولكن رغم كل ما فعلتْه بي الوظيفة، كان لا بد أن أتعامل مع هذا الشخص الهمجي بطريقة مناسبة.

المحقق:

فطبعًا قمت باصطياده وقتله، أليس كذلك؟

الموظف:

اصطياد مَن يا سيِّدي؟ إن كان هناك صيد في هذه الحياة فسيكون أنا، أنا خروف في القطيع البشري الذي ليس له مخالب، ولن يكون، عندما بحثتُ عن فائدتي في هذه الدنيا لم أجد أي فائدة، كأنني خُلقتُ ليسخر مني الناس، انظر إليَّ وملِّي عينك، وزني خمسة وسبعون كيلو، تخيل سعادتك، كم من الناس يمكنهم أن يزنوا خمسة وسبعين كيلو؟ نصف البالغين فوق الكرة الأرضية تقريبًا، كما أنني أيضًا موظف محترم، أستأجر غرفة بمنافعها، كم موظفًا يستأجر غرفة بمنافعها؟ مؤكد كثيرون، لديَّ جلابية بيضاء وطاقية شبيكة، ألبسهما كل صباح

جمعة وأتقرفص أمام الشيخ، وعندما أخرج بعد الصلاة، أشتري اثنين كيلو فاكهة الموسم من أي بائع جوّال، أخصص ربع راتبي في جمعية، طوال عمري أدفعها شهريًّا وأقبضها سنويًّا وأصرفها في ساعة، أنا شخص عادي، لا أقتل أبدًا، تأملني جيدًا يا سعادة البيه، ملامحي عادية جدًّا، لدرجة أني يمكن أن أشبه أي أحد.

المحقق:

وطبعًا حاولتَ أن تجرب شجاعتك وثقتك في نفسك بقتل حلمي؟

الموظف:

مشكلتي الكبيرة يا سعادة البيه أنني أخاف، فأتصرف على نحو يتعجب منه من لا يخافون، جعلني خوفي الدائم أفتقر لروح الدعابة، فضاعفتْ تكشيرتي حجم خوفي من نفسي، تجنبني الناس، حتى أصبحتُ غير مرئي، هكذا سارت الأمور حتى صارتْ أفكاري مثل كرة صوف تعقدتْ فوق مغزلها، أهاب كل شيء يتحرك من حولي، يمزقني ذلك الخوف الذي لا يخلو من عاطفة، أتعاطف حتى مع من يصيبونني بالأذى، افتقدتُ جرأتي تمامًا حتى صرتُ وديعًا مثل نباتات الماء، أهتز فقط لأُشعِر من يراني بأنني لا أنقص عنه شيئًا، توقفتْ لديَّ حاسة رد الفعل بسبب حيرتي المستمرة وارتباكي الدائم، أقف ساهمًا أمام شتائمي ولا أرد، ناهيك عن فكرة الردع التي لا توجد لديَّ بأي شكل، أظل ساهمًا كتمثال شمع ضُختْ فيه الروح عن طريق صدفة لا تتكرر كثيرًا، وربما عن طريق خطأ شنيع، كنتُ أقول في نفسي، عندما أستيقظ في الصباح ستتغير الحال وسأصيرُ شجاعًا، عشرات

الصباحات مرَّتْ، مئات، آلاف، حتى بلغتُ الخامسة والخمسين، ولم يتغير شيء، فأصبحتُ مثل طفل مهذب ودود يحترمه الناس، لكن لا يهابه أحد. ورغم ذلك لم أستطع تحمل أن يتعرض ابني الوحيد للمهانة بهذا الشكل وأسكت.

المحقق:

وطبعًا لم تسكت، أعرفُ ذلك جيدًا، لكنك يمكن أن تقتل، عادي، فاستدرجت حلمي الشهير بتوتة وقتلته؟

الموظف:

لماذا تستعجل عملية القتل، لماذا تُحدث رجلًا ضعيفًا مثلي عن القتل؟ هذه الكلمة ترعبني أكثر مما أنا مرعوب أصلًا يا سعادة البيه، لماذا لا تصدق أنني مجرد موظف غير مؤهل للتعامل مع كل الناس، أنا لم أتعلم في حياتي سوى بيع السخانات، ولكن لأنني موظف أُهين ابنه الوحيد فقد انقسمتُ إلى شطرين؛ شطر منِّي ينوي أن يشرب من دم هذا السفاح ويجعله عبرة للجميع، والشطر الآخر استكان تحت جلد موظف لا يعرف عن الحياة سوى كشف الحضور والانصراف ودفتر الفواتير وأشياء أخرى من هذا القبيل، صادر ووارد، ورديَّات ومخازن، مكافأة نهاية الخدمة والمعاش المبكر، تلك هي مفرداتي التي أنام وأصحو عليها ولا يشغلني أي شيء آخر.

ترددتُ وأنا ذاهب إليه، لكني في النهاية وجدتُ نفسي أمام بيته، ناديتُ عليه بأعلى صوتي «حلمي، أنت يا حلمي» ولَّما خرج سألته أولا «هل أنت الذي ضربت الولد؟» كنتُ قد تعلمتُ هذه

الطريقة من دورة تدريبية أشركونا فيها لنصبح موظفين مثاليين، لا بد أن نسأل الزبون أولًا ليمكننا تحديد رغبته في الشراء، توقعتُ أن حلمي سيكذب وينكر ما حدث، فجهزتُ كل الكلمات التي يمكن أن تحاصره كي لا يلف أو يدور، لكن المفاجأة أنه لم يكذب، لم يلف أو يدور، بل قال ببجاحة منقطعة النظير «آه، أنا الذي ضربته» لم يعطني الفرصة لأجعله ينهار ويعترف، فقد اعترف ببساطة دون أن أطلب منه ذلك، هدم لي حلمي كل ما خططت له، سحق الرجل كرامتي بردوده الصادمة، تهاوى شموخي ولم يسعفني عقلي على تحضير كلمات سريعة تناسب الموقف، فصمتُ، وانطلق حلمي يوزع الشتائم على الجميع.

المحقق:

وطبعًا استفزتك شتائمه فاحتجزته في الغرفة المجاورة لغرفتك وقتلته؟

الموظف:

أنا لم أقتله، أنا لا أستطيع قتل حشرة حتى ولو أكلتْ من لحمي، لكنه عندما اعترف وتبجح لم أجد مفرًّا من توجيه ضربة إلى وجهه دون أن يأخذ باله، طوَّحتُ كفي فهوى على الفاضي، ضربة طائشة أزَّمتْ موقفي أكثر، قهقه حلمي، هأ هأ هأ، وضحك الرجال من حوله، هاهأ هاهأ هاهأ، وأيضًا النساء المارات بالصدفة، هئ هئ هئ، وأصبح موقفي يا سعادة البيه أسوأ مما يمكن احتماله، فقد رأيتُ جميع الناس من حولي فارهين كالأشجار، وأنا وحدي ضئيل مثل نبتة لا تزال تتبرعم.

المحقق:

مؤكد أنك انتظرته حتى مرَّ في الظلام، ثم استدرجته إلى غرفتك وضربته بالماسورة فوق رأسه، أليس كذلك؟

الموظف:

لا، ليس هذا هو ما حدث، فالأمر ليس بهذه البساطة، نشبت صراعات بداخلي أولًا لا يمكن لشخص أن يحتملها إلا لو كان موظفًا يبيع السخانات، فقد قال لنا رئيس قسم المبيعات في الدورة التدريبية أننا كي نصبح ناجحين علينا أن نكبح غضبنا، مهما كان سبب الخلاف، فإرضاء العملاء هو أهم ما يميز الموظف الشاطر، بذلك يزيد حجم المبيعات في المؤسسة وتزيد أيضًا نسبة الحوافز الشهرية، وكذلك أرباح آخر العام.

حاولتُ ادعاء الهدوء، لم أستطع، قفز في نفسي يا سعادة البيه الشخص الذي يتوق إلى الشرب من دم حلمي، لكنني عندما حاولتُ تنفيذ هذا الكلام عمليًّا لم أستطع، جرَّبتُ في البداية لطم وجهه مرة أخرى لكنني اكتشفتُ شيئًا، أن اليد التي تمسك بالقلم ثماني ساعات في اليوم لتكتب الفواتير يد طرية، لا تصلح لحسم المعارك، كنتُ أتحيَّن لقاء كفي مع وجه الرجل الجامد، لم يعطني الفرصة لأختبر ذلك، ابتعد بوجهه إلى الخلف وضحك، كان ضحكه أكثر ما يغيظني، رأيته أمامي قويًّا، رغم أنه ليس موظفًا في شركة السخانات، ولم يشترك في أي دورة تدريبية.

المحقق:

عرفنا ألف مرة أنك موظف في شركة الزفت السخانات، أنت تمضغ الكلمة مثل اللبانة، خلّصنا.

الموظف:

أنت لا تعرف معنى أن تكون موظفًا يا سعادة البيه، هل جربتُ أن تنسى طبيعتك بسبب إرضاء رئيسك في العمل؟ ولأن الشيء المهم في هذه الحياة هو الدفع، فقد أصبح شُغلي الوحيد هو إنعاش قسم المبيعات في الشركة، هل جربت أن تجعل خدك ممسحة أقدام أمام رؤسائك لترضيهم؟ فالزبون يكون أتفه خلق الله قبل أن يدخل الشركة، لكن بسبب النقود التي يحملها في جيبه يجب أن يتحمله الجميع، فسعادتك تعلم أن الزبون دائمًا على حق، لم أكن مؤهلًا للفصل بين شخصية مسؤول المبيعات وشخصية الزوج أو الأب، كانت الشخصيتان تتداخلان في أغلب الأوقات، تاهت روحي الحقيقية بين تضارب الرغبات، وكلماتي أيضًا يا سعادة البيه، انحصرتْ في تقديم فروض الولاء والخدمات لجميع الناس، حتى ولو كانوا أعدائي.

المحقق:

هذا اعتراف منك بأن المجني عليه «حلمي» كان من أعدائك؟

الموظف:

لا لا، لم أعترف بشيء، فأنا لم أتعلم أن أعادي أحدًا، أحب كل الناس، والحق أقول، هذه الصفة السيئة ورثتها عن أبي، كان يصعِّر خده للجميع، يقول لنا أن المحبة باقية، ولا بد سيؤجر عنها الإنسان،

إن لم يكن خلال حياته القصيرة في الدنيا الفانية، فمؤكد أنه سينال الحسنات في الحياة الآخرة الممتدة إلى ما لا نهاية، وقد كان في ذلك كاذبًا، فالذي أجبره على تقبل سخافات الناس هو جُبنه، لكنه أراد أن يُلبسه ثوبًا وقورًا فقال عنه «تسامحًا»، وكان لتلك الصفات المتوارثة أسوأ رد فعل ممكن من الجميع، لأن الناس يخشون الأقوياء، وأنا لستُ قويًّا، لذلك يا سيدي فأنا آخر من يمكن أن يكون لديه أعداء.

المحقق:

لا تعادي أحدًا، آه، لكن يمكنك أن تقتله عادي؟

الموظف:

لم أقتله، أنا لا أقتل أبدًا، ولكن ماذا يفعل الإنسان يا سعادة البيه عندما يقابل شخصًا مثل حلمي؟ فعندما ضرب ابني الوحيد ومزق له ملابسه كنت أحترق من الداخل، وكما شرحت لسعادتك من قبل، فقد ورثتُ الجبن من أبي، كما ورثت أيضًا وظيفته، مسؤول المبيعات في شركة السخانات، فأبي هو الذي سعى لتوظيفي، قال لرؤسائه: ابني يا بهوات، مثلي تمامًا، لا يهش ولا ينش، يمكنكم أن تقولوا له اذهب، سيذهب، وبعد ثانية واحدة يمكنكم أن تقولوا له تعال، وأؤكد لسعادتكم أنه سيأتي في لمح البصر.

مؤكد أن هذه المعلومة مكتوبة في الدفاتر أمام سعادتك، أنني أخذت درع الموظف المثالي مرتين، وذلك بسبب انتظام مواعيدي وعدم غيابي، وأيضًا بسبب ابتسامتي الدائمة في وجوه الجميع.

المحقق:

تحدثت من قبل عن الزفت الدرع، لكن ليس هذا موضوعنا. ما يهمنا هو ماذا فعلت مع حلمي؟

الموظف:

ذهبتُ إليه وهوّشته بحركة زائفة، لم يرمش بعينه لأنه يعرف أن كل محاولاتي خائبة وأنني بالأساس شخص جبان، ظل يضحك ويضحك، فتح فمه مثل مغارة وأطلق أصواتًا لا أخفي أنها أرعبتني، قال بعدها كلامًا أشد رعبًا: «لو رفعت يدك أمامي مرة أخرى فلن ترى ابنك بعد ذلك أبدًا» يمكنني القول أن هذه الكلمات جعلتني أغلق باب غرفتي عليَّ أنا وابني ونتقوقع بداخلها مثل كائنات المحار، لم أعد أخرج إلا لبيع السخانات، ولا يخرج الولد إلا إلى المدرسة.

كانت بجوار غرفتي غرفة أخرى مغلقة، خلتْ من ساكنها وعرضها صاحب البيت للإيجار، فكرتُ أن أدفع له شهرًا تأمينًا وشهرًا مُقدَّمًا وآخذها، ليس للتوسيع عليَّ أنا والولد، فأسرتي الصغيرة مكونة من فردين فقط، ولكن لتكون مخبأً لابني إذا لزم الأمر، قال الساكن القديم أن سبب تركه الغرفة هو استغاثات كائنات غريبة كان يسمعها أثناء الليل، لم أنشغل بمثل هذه الخرافات، أخذتُ أخطط لما يمكن أن أفعله بها بعد أن تسلم مني صاحب البيت المبلغ المطلوب، تخلصتُ من عفشها القديم حتى أصبحتْ خالية تمامًا، نقلتُ إليها بعض المتعلقات الخاصة بي، ملابس الشُّغل الزرقاء والقميص الأبيض المُطرز فوق صدره شعار شركة السخانات باللون الذهبي، وبعض أحذية وأحزمة وعلب صفيح فارغة، ونويتُ أن أخبئ الولد لو استشعرتُ أي خطر يمكن أن يهدده، فكرتُ في حفر

سرداب له سلالم تصل إلى غرفتي القديمة، كما قلتُ في نفسي، سأغطي فتحتها بالكرتون وبعض الخضراوات الذابلة حتى لا يتمكن أحد من الوصول إلى الولد، لا أعرف هل يفكر كل الناس كما أفكر أنا، أم أنها هواجس مرتبطة فقط بالموظفين الذين يبيعون السخانات؟

وبالفعل، أحضرت فأسًا وكوريكًا ومقطفين، كل ليلة أحفر من الغرفة المغلقة ما أستطيع تفريغه، حتى أصبح أمامي بعد أسبوع حفرة تكفي إنسانًا بالغًا واقفًا.

المحقق:

هذه الحفرة هي التي وجدنا فيها حلمي مقتولًا، أليس كذلك؟

الموظف:

مقتولًا! لا تقل هذا في وجهي يا سعادة البيه، فهو الذي أمات نفسه، ويجب أن يُحاسب الشخص على تصرفاته وليس فقط على مصيره، أنا لا أحب أن أكون سببًا في إثارة أي مشاكل، وكل ما في الأمر أن حلمي استفزني بشكل لا يتحمله إنسان، استضعفني لدرجة أنه كان يكتب بالشحم الأسود تحت شباك غرفتي شتائم باسم أمي! عبارات شنيعة من تلك التي تخترق لحم المشتوم وتنفذ إلى روحه فتصيبها بالأذى، كل ذلك لأنني لم أرد على ما فعله من تجاوزات، هل هذا جزائي لأنني تسامحتُ معه أكثر من اللازم؟

المحقق:

ما يعنينا ليس مخزونك من التسامح، نحن نحقق في ارتكابك لجريمة قتل.

الموظف:

سعادتك كمن تحكم على فيلم من مشهد النهاية فقط، مؤكد ستظلمه لأنك لم تر المَشاهد التي أدت إلى تلك النهاية، فلك أن تتخيل أن حلمي الشهير بتوتة لم يعجبه شيء بعد كل صبري على أفعاله وتصرفاته المستفزة، بل أصر على المُضي كما هو في إيذائي، كان تسامحي معه يغريه بأن يركز معي أكثر، قُل أنني متسامح، أو حتى جبان، ألا يعطيني ذلك الحق في العيش بين الناس بكرامة، هل يجب أن أنتزع حقي في الحياة بمخالبي فقط؟ أي نعم أنا من طبقة صغار الموظفين، من تلك الثُّلَّة القليلة التي تنحصر معرفتها كلها في إغراء الناس كي يشتروا السخانات، أنا من تلك الطبقة التي ترضى بالمكاسب الصغيرة وتتعايش مع القدر أيا كان هو، فهل يعطي ذلك الحق لخلق الله أن يجعلوني «ملطشة» لا بد من حل آخر غير القوانين التي لا تهتم إلا بالنتائج فقط، لقد فكرتُ كثيرًا في هذا الأمر، هل توجد في حياتي قضية كبيرة أعيش من أجلها؟ وتأتي الإجابة في كل مرة بالنفي، فماذا يكون بائع سخانات وسط كل هذا الكم من البشر، ملايين، مليارات، يتحركون في كل الاتجاهات مثل الدود، ماذا أُمثل أنا في ذلك الخضم الهائل من الحركة، حتى في أحلامي لم أكن أحلم بشيء، تزوجتُ لأنهم طلبوا مني ذلك وأنا على مشارف الأربعين، قال لي أخي الكبير: سيعتقد الناس بأنك معيوب، وأنا لا أحب أبدًا أن أكون معيوبًا يا سعادة البيه، فتزوجتُ، وأنجبتُ لأن زوجتي قالت أنها حامل والحامل يجب أن تلد، وطلقتُها لأني لا أحب الدخول في مشكلات أو قضايا، كل مرة أشعر فيها بأنني لم أكن مؤهلًا للمجيء

إلى هذه الحياة تنتابني خيبة كبيرة، كأن أحدًا لا يعرفني غرز سكينًا ليُخرج أحشائي دون أن يقصد.

المحقق:

كل ما تقوله هو مجرد فضفضة لا يوجد لديَّ وقت لسماعها، أنا أريد معرفة الحقيقة، ماذا حدث بالضبط، ما الذي دار بينك وبين حلمي يوم ارتكاب الجريمة؟

الموظف:

أنا لا أجيد الاختصار، ولستُ بارعًا في ربط الأفكار، لا يمكنني التحدث بانتظام عن أي شيء، ولا أعرف كيف نما كل هذا الكُره في نفس حلمي تجاهي، فقد قال لي ذات مشادة كلامية «أنت شخص عبيط وليس لديك أي خبرة بالحياة» كيف يقول ذلك وأنا موظف محترم؟ أرى أن طاعة رؤسائي واجب مقدس، أبتسم دائمًا ولا أنسى نصف انحناءة أمام الزبائن كما أوصاني أبي، أفعل باقتناع ما يجعلهم يعتقدون أنهم أذكى مني، وإلا فلماذا أنحني إن لم يكونوا صنفًا ممتازًا من البشر؟ مؤكد مكتوب أمامك في الأوراق أن أبي هو الذي عيَّنني في هذه الشركة العتيقة، ثلاثون عامًا وأنا أتحدث همسًا إلى الزبائن، أعرض عليهم فضائل شراء السخانات حتى في فصل الصيف.

لا أستطيع اختصار حياتي يا سعادة البيه، فأنا نفسي لا أفهمها، حتى شتائم حلمي لم أكن أعرف كيف أرد عليها، قلت له ذات مرة «أنا معك للآخر» جملة سمعتها بالصدفة في أحد الأفلام، ومرة أخرى قلت له «من أجل العيش والملح فقط لن أرد عليك» وهذه

جملة أخرى التقطتها أذني من خناقة في الشارع، أنا يا سعادة البيه لا أعرف كيف تُدار معركة الحياة أصلًا، لا أعرف في أي اتجاه يمكنني أن أوجِّه الدفَّة، وبدلًا من أن تحاسبوا الناس مِن عيِّنتي على ما ارتكبوه من أخطاء، يجب عليكم أولًا أن تجعلوهم يعيشون وحدهم في مكان خاص بهم، وليكن بعيدًا، في جزيرة غير مأهولة مثلًا، إما ذلك وإما تدربوهم على كيفية التعامل مع بشر من عينة حلمي أولًا، لكن أن يجدوا أنفسهم في بحر كبير لا يمكنهم السباحة فيه، ثم يُحقق معهم في أشياء لا يفهمونها، فذلك سيؤدي إلى ظلم وكوارث لا محالة.

المحقق:

أنت لست بهذه السهولة التي تريد أن تظهرها، أنت حويط أكثر من اللازم.

الموظف:

أنا؟

المحقق:

تراوغ في الإجابات وتجيب عن الأسئلة بطريقة ملتوية، هل تظنني سأضعك في خانة الطيبين؟ أنت واهم، أنا أريد منك إجابة واضحة، لماذا قتلت حلمي؟

انفعل الموظف كأنه سيلفظ جزءًا من أحشائه مع الكلام :

ولماذا قتل حلمي ابني؟

المحقق:

أنت هنا لتُسأل لا لتَسأل، ولنفرض أن حلمي هو الذي قتل ابنك كما تدعي، فقد مات حلمي، ولم يعد أمامي متهم في جريمة قتله غيرك.

الموظف:

وهل ذنبي أنني الوحيد الذي ما زلت على قيد الحياة؟

المحقق:

اسمع، كل ما يهمني الآن أن..

الموظف:

أن تقفِّل دفاتر القضية المفتوحة مثل بطن المريض أمام الجرَّاح، تريد أن تنتهي من العملية لتنشغل بمريض آخر، حتى ولو كان صاحب البطن المفتوح مُعرضًا للخطر والموت، أعرف ذلك، أعرف أعرف، عندما فكرتُ في كلام سعادتك وجدت أنك على حق، كيف يمكنك أن تُحاسب حلمي وقد بدأ رحلته في التحلل والذوبان منذ أيام، وكيف تبحث عن حق ابني وقاتله الآن ميت؟ لكن يمكنك يا سعادة البيه أن تعاقبني لأنني ما زلتُ حيًّا، تُجلسني أمامك أربع ساعات وتسألني، لماذا أخذتُ حقك من ذلك المجرم؟ وعندما كنا جميعًا أحياء لم يعرفني أحد، عملت ثلاثة محاضر ولم يتحرك أي عسكري لينقذني أو ينقذ ابني من هذا الخمورجي الشمام صاحب سجل السوابق، تركتموه يرفع إصبعه الأوسط لنا كلما رأى أحدًا منا أمامه، أنا لا أود الدفاع عن نفسي بقدر ما أرغب في أن أتكلم،

من فضلك يا سيِّدي، اسمعني، افترض معي أن فضفضتي هي آخر الأماني، ولا أريد بعد ذلك شيئًا آخر.

المحقق:

تكلم وخلِّصنا.

الموظف:

كنا قد توقفنا عندما ضرب حلمي ابني، ضربه ضربًا مُبرِّحًا، حتى سالت الدماء من أنفه وكوعه وفُتح حاجبه، أخذتُ أبحث وأنا في منتهى التوتر عن أي إصابات أخرى في الولد، وعندما تأكدتُ أنه لا توجد جروح خطيرة أدخلته جريًا في جري إلى الغرفة المجاورة لغرفتي، التي استأجرتها وحفرتُ فيها خندقًا صغيرًا، حممتُ الولد وغيرت له ملابسه، اشتريت كيس قطن من الحجم الكبير ولفافة شاش وبكرة لاصق طبي، خفتُ أن ينزف أثناء الليل وألوثُ جروحه بخِرقي القديمة، عندما راح الولد في النوم أخذتُ أفكر في حالي، فأنا لم أردّ على كل إهانات حلمي ورغم ذلك فعل هذا بالولد، فما بالك لو أنني تشاجرتُ معه مثلًا؟ حدثتْني نفسي أنه يفعل كل ذلك بنا لأنني لم أفكر في الرد عليه، استحلى أذيتنا وراقت له مضايقتنا، أو بالأدق، أصبحنا تسليته بشكل ما، فانتفضتُ كأن مسًّا أصابني، تركتُ الولد نائمًا في الخندق الصغير الذي حفرته، ثم خرجتُ وأنا ممتلئ بذلك الشعور الغاضب الذي يناسب اللحظات الصعبة، هل تفهمني سعادتك، أحدثك عن ذلك الإحساس الذي يصاحب التمرد على كل شيء، أردتُ أن أتغير وأصبح شجاعًا، فذهبتُ إلى حلمي بنفسي، تخيل! ذهبتُ إليه وفي يدي الكوريك الذي حفرت

به الخندق، في الطريق إليه لم أدرِ هل كنت ماشيًا أم زاحفًا أم طائرًا، كل ما فكرتُ فيه هو الرد، أي رد يريحني لأشعر بأنني لستُ تمثالًا، ناديتُ بصوت خنقني في البداية، تحشرج وهو خارج من زوري، ثم سرعان ما أُزيلتْ عن طريقه حصوات الخوف وتفتتْ «يا حلمي، اخرج إليَّ إن كنتُ رجلًا» فخرج حلمي يفرك عينه من أثر النعاس أو السُّكْر أو شُرب الحشيشة أو أي شيء يؤكد أنه غير واعٍ، اقترب مني بخطى ثابتة ونزع الكوريك من يدي، لا أعرف لماذا خانتني أصابعي وارتختْ، تركتُ له سلاحي الوحيد، عاد صوتي يخنقني وأنا أبحثُ عن الكلمات مرة أخرى، لكن قبل أن أصل إلى جملة مفيدة أنطق بها عاجلني حلمي بلطمة قوية على وجهي، والعجيب أنني تلقيتُ الضربة بصمت، تبددتْ كلمات الغضب التي كنت قد جهَّزتُها ردًّا عليه وطارت من فوق لساني، تحولتْ أضواء المساء إلى عصافير صغيرة بيضاء تبرق وتختفي، زنَّتْ أذني وصفَّرتْ، خارت قواي واختفت شجاعتي، عدتُ كما كنتُ، أبحث عن كرامتي المتبعثرة تحت قدميَّ، لكن بلا رد فعل يُذكر.

المحقق:

وطبعًا ثارت كرامتك فضربته بالماسورة وقتلته؟

الموظف:

لا، لم أفعل شيئًا من ذلك، عدتُ إلى غرفتي لأطمئنُ على ابني الذي في الحفرة، فاقدًا كرامتي والكوريك، رأيتُ الذباب يأخذ نصيبه من جروح الولد، نظفته وغيرت له ملابسه ومسحت دمه المتجلط، كنتُ أحاول أن أبعد عن عينه الجانب المضروب في وجهي، لم أود

أن يراني مهزومًا وهو في هذه الحال. حتى تلك الأثناء كنت أعتقد أن حل الحفرة مناسب للحفاظ على ابني الوحيد، فكرتُ وأنا أمسِّدُ جروح الولد بقطنة مبللة أن نترك المنطقة ونُعزِّل، وقبل أن أصل إلى قناعة في سكن آخر يناسبنا انفتح باب الغرفة، لمحتُ كشافًا يضرب في الحفرة إضاءته قوية جدًّا، لدرجة شعرتُ معها أن ابني يحترق من شدة الضوء، لمحتُ بطرف عيني ملابس حلمي التي كانت تميزه؛ جاكيت جلد بيج وبنطلون جينز أجرب له جيوب كثيرة مليئة بالأحزمة، رفعتُ رأسي فرأيتُ الكوفية السوداء التي يلفها حول عنقه بشكل دائم، كان بصحبته بعض الرجال الآخرين، عندما لمحتُ الشر في أعينهم الجامدة قلت لهم «أنا مجرد موظف صغير أعمل في شركة بيع السخانات، وابني غلبان ومُصاب» لم تجعلهم مثل هذه الكلمات الخائبة يتعاطفون معي، بل سخروا مني وأطلقوا ضحكات هازئة بعد أن أشعلوا جميعًا سجائرهم، تقدم حلمي وفي يده الكوريك الذي أخذه مني، وقبل أن أستوعب ما يحدث من حولي هوى به فوق رأس ابني، كان رأسه هو الشيء الوحيد الظاهر من الحفرة، لطمة واحدة ارتجف الولد بعدها وخرجتْ من رأسه نافورة صغيرة، دم يرتعش كنبض القلب، ثم مال رأسه وسكن إلى الأبد، لم يعطوا الولد فرصة ليقول آه، دفنوا أعقاب سجائرهم في الطين المحيط بالحفرة، خرجوا وهم يكلمون بعضهم في أمور أخرى، مرت هذه اللحظات عليَّ وكأنني أحلم أو غائب عن الوعي أو شيء من هذا القبيل، لم أصدق أن الولد قد انتهى.

المحقق:

وبعدها بالطبع فكرتُ في الانتقام من حلمي فقمتُ بقتله، أليس كذلك؟

الموظف:

ليس بالضبط يا سعادة البيه، الأمور الكبيرة لا توضع في خانات وجداول، لم أقرر شيئًا، حتى دفن الولد تطوع به بعض الجيران، لم أشعر أنا بشيء، سرقتني السكين كما يقولون، كنتُ فقط أسمع كلمات مواساة يتلفظ بها أشخاص لا أعرفهم، خرجت مُحاطًا بدوامة ضبابية مثلما يحدث في الأحلام، وبالطبع لم أكن أملك الإمكانية لأن أنجب طفلًا غيره، ليس لأن زوجتي طلبت الطلاق وتزوجتْ من رجل آخر، ولكن لأنني لو فعلتُ ذلك كنتُ سأُحضرُ إلى الحياة روحًا أخرى غير مؤهلة للتعامل مع البشر، نزلتْ عليَّ سَكينة، لا أعلم من أين جاءتني، وراودتني بعض الأفكار التي تصلح للحيوانات أو الطير الأخرس، أردتُ تعلُّم مهارات جديدة بعيدًا عن التعامل مع الناس، ووقر في نفسي أنني نوع من المواشي أو الزرع أو صنف نادر من طيور المحيط، لكنني أبدًا لستُ إنسانًا مثل جميع الناس.

المحقق:

هذا الكلام لا يعفيك أبدًا من مسؤولية القتل العمد، لا بد أن تنال جزاءك، ورغم كل شيء فلا بد أن تُكمل تفاصيل الاعتراف.

الموظف:

لقد طلبتُ من سعادتك أن تمهلني الفرصة لأقول ما في نفسي.

المحقق:

ها، أكمل.

الموظف:

بعد أن فقدتُ ابني هِمتُ في الدنيا ولم أعد أعرف ما أريده بالفعل، لن أقول أنني فقدتُ عقلي لتخفيف عقوبتي، لا لا، أنا لا أقول مثل هذا الكلام الكاذب، لكن بعد موت ابني هجرني الناس، كنتُ أمشي وسط الشارع فيلقون بالقاذورات فوق رأسي ولا أتكلم، فأنا لا أعرف كم حلمي سيخرج لي من البلكونات، مؤكد سيفتعل معي بعض الناس أي مشكلة لو اعترضتُ على إلقاء الزبالة فوق رأسي، فكنتُ أصمت ولا أعترض، كل الجيران في الشارع كانوا يعرفون ما حدث، لكنهم لا يتكلمون، وربما لو جئت بهم سعادتك إلى هُنا واستجوبتهم فلن تخرج منهم بشيء، لن يستطيع أحد منهم أن يتلفظ باسم حلمي، هم يعرفون ذلك جيدًا، وحلمي أيضًا، رغم أنه لم يتفق معهم، أصبحتُ أنا الشخص الوحيد في العالم الذي لا يفقه أي شيء. تعطَّف عليَّ بعض الجيران ودفعوا لي إيجار الغرفتين لمدة شهر، ثم لم يعودوا يستطيعون تجميع إلا نصف الإيجار، في الشهر الثالث فرغت جيوبهم، لم يعد لديهم إلا التعاطف معي والخوف من حلمي، فقال لي صاحب الغرفتين أنه يريد تأجيرهما إلى شخص آخر يمكنه الدفع في موعده، لكنني عندما ذهبتُ إلى الحفرة التي قتل فيها حلمي ابني لم أستطع التحرك، جلستُ بجوارها وبكيت، بعد ثلاثة أشهر من فقد الولد بكيت، وكأنني اكتشفتُ فجأة أن ابني قد مات، وأنني أصبحتُ وحيدًا، عندما عاين صاحب البيت الغرفة ورأى الحفرة طالبني بردمها، قلت له أنني لا أملك الجهد ولا المال ولا الأدوات

لفعل ذلك، قلت له هذا الكلام بغير اقتناع، فقد شعرتُ أن الخندق الصغير هو النافذة الوحيدة التي يمكن أن أرى منها ابني، فقال صاحب البيت: «سأترك لك هذا الشهر ولا أريد منك أُجرته حتى تدبر لك سكنًا آخر»، أعطاني الفرصة للمبيت في الغرفة المجاورة لغرفتي القديمة، تلك التي استأجرتها لأخبئ فيها ابني، كنت أنام فوق التراب المبلول ولا أشعر بنفسي إلا عندما يحين وقت العمل، أقوم جريًا في جري وأرتدي ملابس العمل الزرقاء، أذهب لأقف خلف بنك البيع، أقنع الزبائن ببضاعة الشركة الراكدة في المخازن، أنحني أمامهم نصف انحناءة كما علمني أبي، وكما كنتُ سأعلم ابني لو مد الله في عمره ووصل إلى سِن العمل.

المحقق:

وهل أخرجتَ حلمي من رأسك في تلك الأثناء؟

الموظف:

حاولتُ أن أفعل ذلك، أصبحتْ ملامحه مشوشة في رأسي، كان يمشي متفاخرًا بأنه قتل ابني دون أن يمسسه أحد، ربما اعتمد على رجاله الذين جاءوا معه ليتفرق دم الولد بينهم، لم يستطع أحد من الجيران أن يتهمه، أما أنا فتلجم لساني ولم أعد أستطيع مجرد النطق باسم حلمي، لكن الغضب كان يتصاعد بداخلي مثل مفرقعات نارية، لا أملك إبعادها أو التخلص منها، لم أكن أعرف أنني أدخرُ غضبي كله وأكتمه لينفجر في لحظة واحدة.

المحقق:

تقصد لحظة قتل حلمي، أليس كذلك؟

الموظف:

ليس بالضبط يا سيدي، لكنها لحظة تشبه الانفجار الحتمي، ولو حتى في نفسي، كانت مهلة السكن المجاني التي سمح بها صاحب البيت قد أوشكتْ على الانتهاء، فأردتُ أن أردم له الحفرة بسبب المعروف الذي أسداه لي بالشهر المجاني، أحضر الرجل مجرفة صغيرة وفأسًا وماسورة حديدية، قال لي: «هذا هو كل ما أمتلكه من عِدَّة، يمكنك أن تستفيد بها في عملية الردم» لكن أثناء تسوية التربة وإعادتها كي تصلح للسكن مرة أخرى، توقفتُ عن العمل فجأة، قلتُ في نفسي، هب أنك ردمت الحفرة وانتقلت للسكن في أي مكان، حتى ولو كنت ستبيت في مخزن شركة السخانات، وماذا بعد، كيف ستعيش بلا زوجة ولا ابن ولا شخصية؟ الجميع يعاملك على أنك طفل في الخامسة والخمسين، لا أحد يراك مؤثرًا في الحياة ولو بهامش ضئيل، الخوف قتل في نفسي كل الأشياء التي يمكن أن يعول عليها إنسان، وجدت يدي تتوقف فجأة عن نقل التراب من محيط الحفرة إلى قاعها، نظرتُ بغضب إلى الفأس والمجرفة، شعرت بتقلصات في بطني، وأن معدتي تعوم باتجاه حلقي، توقف عقلي عن تفكير في كل شيء، إلا حلمي، فسحبتُ الماسورة الحديد وجريتُ إلى بيته، ناديتُ عليه بصوت لم يتحشرج هذه المرة، قلت: «يا حلمي، اخرج إليَّ إن كنت رجلًا» فخرج يفرك عينه باستهتار، وقبل أن يقترب ويسحب مني الماسورة كما فعل في المرة الفائتة مع الكوريك، عاجلته بضربة قوية منبعها الخوف لا الشجاعة، رفعت الماسورة وهويت بكل عزمي

على رأسه، اصطدمت الماسورة في طريقها بأذنه وفكه، سمعتُ طقطقة أسنانه، وهُيئ لي أن نابه وقع على الأرض قبل أن يترنح هو ويقع.

المحقق:

ها، لقد قتلتَه كما قلت لك في بداية التحقيق، إذًا أنت تعترف الآن بأنك القاتل؟

الموظف:

لا، لم يمت، فقد رآني كل الجيران تقريبًا، تابعوا سقوط حلمي وصنعوا من حولنا حلقة، أخذوا يشهقون وهم يتأملوننا بفرحة غريبة، وكأنني فعلتُ لهم ما أرادوه، ظهرتْ رغبتهم فجأة بسبب ضربة متهورة من أجبن شخص في العالم، قال أحدهم: «لن نتكلم، لن نُبلغ عنك» وقال آخر: «اقتله، نحن معك وسنشهد بأن لا علاقة لك بالموضوع» وقالت امرأة كانت تسرح لابنتها شعرها فوق مصطبة: «أنت أشجع من جميع رجالنا» التف حولي ثلاثة رجال أشداء يعرضون المساعدة، فقلت لهم أريد سحب حلمي إلى الغرفة المجاورة لغرفتي، فحملوه خفافًا كما يحمل البالغون طفلًا، وضعوه بجوار الحفرة المردوم نصفها وانصرفوا، تركوني مع حلمي وبجوارنا كيس القطن الكبير، حلمي مصاب وينزف من كل فتحات وجهه، قيدتُ يديه من خلف ظهره بحبل كتان غليظ، ألقيتُ به في الحفرة التي مات فيها ابني، دخل صاحب البيت وعرض المساعدة هو الآخر، هُيئ لي أنه قال يا بطل أو يا زين الرجال أو شيئًا من هذا القبيل.

المحقق:

وهذا بالطبع هو ما حمَّسك لاستكمال ارتكاب الجريمة، هه؟

الموظف:

لا لا، كان كل همي أن أتأمل الخوف في عين حلمي، أن أشعر بالزهو الذي طالما شعر به أمامي، سرعان ما ألقيتُ به في الحفرة، ولأنه كان طويلًا أكثر من اللازم فلم يُدفن سوى نصف جسده فقط، أصبح أمامي نصف إنسان، أراه من رأسه وحتى سُرَّته، يلهج وهو يحاول مصّ الهواء فلا يجد في فمه إلا الدم والتراب، قبل أن يستفيق ويتمكن من الصراخ أو يطلب المساعدة حشوت فمه بالقطن، قيَّدتُ ذراعيه خلف ظهره وربطت قدميه بحبل كتان كي لا يستطيع الخروج بعد أن يعود إليه وعيه، تناوب عليَّ إحساسان متضاربان؛ أريده أن يموت، وفي الوقت نفسه أخاف أن أفقد مكانتي الجديدة إن هو مات، كانت مساعدة الجيران لي وتشجيعي على إيذائه تطربني، أدركتُ كم هو جميل إحساس القوة هذا، لم أعد ألومه على استضعافي في السابق، فالتفوق شعور مُسْكر، له في النفس شهوة وفي الرأس نشوة وفي الفم حلاوة، دارت بيننا حوارات طويلة لمدة ثلاث ليالٍ، أطعمته خلالها وداويته بالقطن والشاش والبيتادين، كنتُ أنام بعيدًا عنه مقدار متر واحد فقط، في الغرفة المغلقة التي كنتُ أخبئ فيها ابني، أغمضُ عينًا وأواربُ الأخرى كالثعالب.

وذات ليلة حاول تغفيلي، لا أعلم كيف وصل طرف الماسورة إلى يده، رأيته في الظلام يفتح قبضته ويضمها على شيء ما خلفه، فتركته يتخيل أن بإمكانه ضربي، وفور أن اطمأن لأنني لا أراه انتصب عودي أمامه فجأة مثل فزَّاعة، وضحكتُ، كان ضحكي يرعبه وأنا أستعيد

منه الماسورة وأخبطه على الجانب الآخر من رأسه، لا أعرف لماذا كان إيذائي له يؤذي روحي، سرعان ما نزف وأغرق دمه الجاكيت الجلد البيج والجزء الظاهر من بنطلونه الجينز الأزرق، كل لمسة تصيبه كانت تأكل في لحمي، فأستيقظ من نومي أحيانًا لأقدم له المساعدة، ليس لأنه يستحقها، ولكن كي أرى نظرات الخوف والضعف في عينيه، أحيانًا أهوشه لأظفر برجوعه إلى الخلف وهو يرتجف، وعندما يريد تخليص يديه من الحبل الكتان الذي يقيدها كنت أصفعه بشكل أعنف، أين يريد أن يذهب؟، هذه فرصتي الأخيرة لتعويض ما حدث لابني، بعض الجيران كانوا يريدون أن يشاركوني هذه المتعة، لكنني استحوذتُ عليها وحدي، كمن أراد أن يشرب الزجاجة كلها برشفة واحدة، ولأول مرة منذ ثلاثين سنة، لم أعد أفكر في وظيفتي، ولا أود العودة إلى نصف الانحناءة أمام الزبائن وأنا أعدد لهم المزايا التي سيحصلون عليها عند شراء السخانات.

المحقق:

لقد وجدنا رأس حلمي متهشمًا، وهذا يتنافى مع ما تقوله الآن.

الموظف:

تخيل معي يا سعادة البيه أنني داويته وتركته يعود إلى حال سبيله، بالطبع، كان سيعود إلى سابق عهده، وربما قتلني بدم بارد كما فعل مع ابني، وربما عاد الجيران يلقون بقشور البطاطس والقلقاس فوق رأسي من بلكوناتهم، أما في هذه الحالة الجديدة فأنا بطل، حتى ولو لوقت محدود، حتى ولو كانت نهايتي معروفة، فلا يوجد أبدًا بطل مدى الحياة.

المحقق:

كنت تنتقم منه، أليس كذلك؟

الموظف:

لا، ليس بالضبط، ربما القضايا الكبيرة في هذه الحياة يمكنها أن تُحسم بهذه الطريقة، أما الأمور التي تخص مشاعر شخص تجاه شخص آخر فمعقدة أكثر من ذلك بكثير، كنتُ عندما يغيب حلمي عن الوعي أُمسِّدُ دمه المتجلط بقطنة بيضاء مبللة، تمامًا كما فعلت في السابق مع ابني، أُقدِّم له من الوجبات التي أتناولها، وأسقيه من زجاجتي، لا أعرف من أين جاءتني مشاعر الأمومة هذه؟ كانت ملامح حلمي هادئة، ووقت النوم يغيب عنها الشر، شعرتُ أنه ابني بشكل ما، فهو مصاب مثله، وراقد في الحفرة نفسها مثله. فرغ كيس القطن الكبير على جروح حلمي، مدَّتني يد أخرى بكيس إضافي أكبر، أدركتُ لتوي أنهم لا يريدون لتلك الحالة أن تنتهي، فدائمًا يأمل الضعفاء أن تتحقق أحلامهم بيد غيرهم.

ظلَّت الحال تسير على هذا المنوال لليلتين متتاليتين، وفي الليلة الثالثة ساهاني حلمي وفك قيده، لا أعرف على وجه الدقة كيف حدث هذا، ربما مرر القيد على حرف الكوريك الحاد، رأيته في عمق الليل الساكن يمسك حفانًا كبيرًا من الطين المحيط بالحفرة ويلقي به في وجهي، عميتُ لثوانٍ قبل أن أزيح الطين عن عيني، فرأيت شبحًا ينهض ويتمدد أمامي، يتحرك في جميع الاتجاهات، ورأيتُ ماسورتي الحديدية التي جلبت لي المجد ولجَّمتْ في نفسي كل خوف، لكنها كانت في يده لا في يدي، فعلتُ مثله وكبشتُ حفنة طين طري من

تحت قدميَّ، ألقيتُ بها فأصابت وجهه مباشرة لدرجة أن صوت اللطمة فرقع، انتهزتُ هذه الفرصة وسحبتُ منه الماسورة، أخذتُ ألوح بها كالمجنون، في جميع الاتجاهات، تصطدم مرة بالهواء ومرة بالجدران ومرة بأجسام أخرى لا أراها بوضوح، ينغرز بوزها في الطين بسهولة ويخرج بصعوبة، طيخ طاخ طوخ، في تلك اللحظات كنتُ قد تحولتُ إلى شبح، أو ربما أكون الرجل الوحيد الحي في غرفة تعج بالأشباح، هيصة وجلبة عمَّتْ الغرفة المغلقة، حفلة صاخبة من عمى مؤقت أصابنا أنا وحلمي، لا أدري ماذا أفعل بالماسورة، ولا ماذا يفعل أمامي الرجل الذي اتخذته أسيرًا منذ ثلاث ليالٍ، وبدأت أتذكر كلام الساكن القديم عن كائنات الغرفة المغلقة، تلك الكائنات الليلية التي بدأت في الظهور لي أنا الآخر.

بعد أن خارت قواي، وبعد أن أزحتُ الطين وزال حرقان عيني، رأيتُ الفراغ كله منقوشًا باللون الأحمر، في البداية، اعتقدتُ أن حَمار عيني هو الذي انتقل إلى ما أراه، لكن بعد أن تأكدتْ الرؤية ووضح كل شيء من حولي، اكتشفتُ أن الفراغ الأحمر ما هو إلا ملابس حلمي الغارقة في الدماء، وأن الجدار الذي كنتُ أضربه بالماسورة ما هو إلا رأس حلمي، عاينته وهو ملقى في الطين، رأسه متوهج، لا رعشة فيه ولا ارتجافة، متهشم تمامًا وفاقد للملامح، عينه زجاجية تشبه عيون الأسماك المملحة، رأيتُ أنفه وكأنه نُقل من مكانه، كانت جمجمته مليئة بالخبطات والجروح، وفروة رأسه كأنها مسلوخة، هل فعلتُ وحدي كل ذلك؟ دقَّ السؤال رأسي أكثر من مرة، فقد كان الأمر بسيطًا، بسيطًا جدًا، لم يكن مروعًا مثلما حسبته، كل ما في

الأمر أن الغرفة المغلقة امتلأت بأدخنة بيضاء، كتلك التي تتسلل إلى الكوابيس والأحلام، خبطة، خبطتان، ثلاث، هوب، فانكشف الدخان عن جثة.

المحقق:

أنت تعترف الآن بأنك من قمت بقتل المدعو حلمي عمدًا؟

الموظف:

لا يا سعادة البيه، أنا لا يمكن أن أقتل أبدًا، كنت فقط أريد أن أقول لسعادتك كيف جرت الأمور مع حلمي، أردتُ أن أحدثك عن التفاصيل، ففيها يكمن كل شيء، أنا لا يمكن أن أقتل أبدًا، فقد سألتُ المبلط عن سعر تبليط الغرفة قبل أن أتشاجر مع حلمي بيوم واحد، وهذا دليل على أنني مواطن أعيش في حالي، لأنني أفكر في تبليط غرفتي التي أقيم فيها مع ابني في سلام.

المحقق:

يبقى سؤال أخير، هل كنت تشك بأن جيرانك سيبلغون عنك، ولذلك قمت بتسليم نفسك؟

الموظف:

لا، لم يُبلغ عني أي شخص، بل لم تظهر النية في ذلك على ملامح أحد من جيراني، بالعكس، لقد ساعدوني على إخفاء جثة حلمي، وكانت الحفرة جاهزة ومُعدة لترتيب كل شيء دون أن يشعر أحد، فلو أن كل فرد من الجيران أفرغ كوريكًا واحدًا من التراب، ستصبح الحفرة بئرًا بلا قرار، وعندما يُدفن فيها حلمي لن يشم خبره أحد،

بل إن أحد الجيران تكفَّل بتكفين حلمي، هُيئ لي أنه قال: «سأبدل له بنفسي بنطلونه الجينز الأجرب الذي تميزه جيوبه الكثيرة برداء أبيض ليس له جيوب» لكنني انسلختُ من حوارهم التافه الذي انحصر حول حلمي وموته، ولم يهتم أحد منهم بي أنا، أنا الذي مات ابني بسبب خوفي، وأنا أيضًا الذي خلصتهم من خوفهم.

المحقق:

ما دامت الأمور جرت كما تقول، فلماذا إذًا سلمت نفسك واعترفت بجريمتك دون أن يقبض عليك أحد؟

الموظف:

لأنني فقدتُ نصف رغبتي في الحياة عندما مات ابني، وفقدتُ النصف الآخر عندما مات حلمي، لم أجد شيئًا يمكن أن أستمر في الحياة من أجله، فقد عشتُ حياتي كلها مجرد موظف ضئيل، أنحني نصف انحناءة أمام الزبائن وأنا أبيع لهم السخانات.

حكاية حُكيتْ بالخطأ

«كان كطيور النورس التي لا بر لها،
تطوي أجنحتها عند الغروب وتهدهد نفسها للنوم بين الأمواج،
وعندما يجن الليل يلف أشرعته ويخلد إلى الراحة»

هرمان ملفل - موبي ديك

دعيني أكمل لك ما حدث يا صغيرتي، فأنا لستُ أول إنسان يخرج من كتاب ليصحح حكايته، فعلها من قبل أخي فومبا، وعندما عاد وقصَّ علينا أنا وأبي الحوادث التي جرت له؛ قلتُ لماذا لا أُجربُ الهرب أنا الآخر من قبضة سيدي؟ أرجو ألا تخافي مني، سأقص عليكِ حكايتي وليستْ لديَّ أي مطالب، فقد خرجتُ لتوي مباشرة من البحر، هربت من السواحل إلى جزيرتك العامرة، شيء آخر أرجوه منكِ، أن تُغلقي هذا الكتاب، فحكايتي المكتوبة بداخله حُكيت بالخطأ، وإليكِ ما حدث إن كنتِ تريدين معرفة الوقائع كما جرتْ.

اسمي يومبا، وسبب اعتراضي على القصة المكتوبة التي بين يديكِ أنها بدأت من حيث يريد سيّدي، الرجل الأبيض الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، قضى معظمها في تسخيرنا لخدمته، هو الوحيد على ظهر السفينة الذي يجيد القراءة والكتابة، فقد كنا نراه يتسلل ليلًا بعد أن تهدأ الأمواج إلى صومعته المرفهة بجوار القُمرة، تتدلى قبعته وراء رأسه، يمسك بقرن بقرة مدفونة في تجويفه شمعة، يحمل الريشة والمحبرة ودفترًا له غلاف سميك مصنوع من جلد

الضواري ويسرح، ثم يكتب ما يجول في خياله، وبالطبع لا يستطيع أحد من البحارة أن يعترض على ما توصَّل إليه من قصص خرافية لا تمت للواقع بعلاقة، كان بعد أن ينتهي من تسويد أوراقه ينظر إلينا بقرف، في حقيقة شعورنا كنا نراه رجلًا مريضًا بالزهو، ينسب إلى نفسه كل المزايا، وأي خطأ يقع في الكون فبسبب غباء الآخرين، الذين هم نحن، عبيد البحر، رأيناه يتلو علينا حكايات مضحكة جدًّا، كأن يقول مثلًا أنه كان العقل المدبر لإنقاذ سفينتنا من الغرق في المغامرة البحرية التي وقعت لنا.

«**أغدقتُ على هذه الكائنات من خيراتي وخبرتي، وهذا ما سيتبين بعد حين، فقد شحنتهم بأفكاري لعلهم يُشغِّلون أدمغتهم الصلبة في ما ينفع، منذ سنوات بعيدة اكتشف أبي أن الشهوات تملأ رؤوسهم، مثلهم مثل أي حيوان أرعن، يرعى سعيدًا ما دامت الوجبات تُقدم لهم بانتظام، وفي الوقت عينه؛ لو وجدوا الفرصة للهرب لأفلتوا دون تفكير**».

منذ طفولتي وأنا أسمع الحكايات عن هذا السيد صاحب البشرة الوردية والشعر الكثيف، كنتُ أراه متطرفًا في ملبسه من شدة التأنق، يغدو ويجيء ومعادن كالأجراس تهتز فوق صدره، يرتدي بدلة منشاة كثيرة النياشين، ومن عنقه تتدلى القلائد، تميزه قبعة لها بوز عريض يغطي جبهته ويمنع عنه رؤية السماء كاملة، كان يخطو من القُمرة إلى الدفة ونحن نصطف أمامه، لا يكف يوزع تعليماته الصارمة حول كل

شيء؛ النظافة، المأكل، الملبس، اتجاه دفة القيادة ومقارنتها بما جاء في الخرائط، ترتيب شوالات المحاصيل التي سنبيعها إلى البلاد البعيدة، لكن أبي قال لي الحقيقة ونحن نستدفئ على جمر الحطب ذات مساء شتائي، قال أنه لولا سواعد العبيد لما استطاع صاحب السفينة أن يرفع مرساة بيده الناعمة، أو يُشغل مضخة بذراعه الرخو، أو يدير دفة تحتاج إلى عضلات في الصدر والأكتاف، حتى طي الشراع لا يقدر عليه وحده لأنه يتطلب ثباتًا في الأعصاب وطول بال، كان عمله قليلًا وأجره أضعاف ما يتقاضاه مئات الأشخاص مثلنا، كما أضاف أبي وقال: وأنا في مثل عمرك يا يومبا كانت طمأنينتنا تُستهلك ونحن نراقب العواصف ونشد الحبال، وسيدنا الأبيض البالغ من العمر خمسة وخمسين عامًا يجلس فقط ليفكر، تتيبس أوردتنا وشرايينا ونحن على وضع واحد لساعات وساعات، وهو يُعمل خياله فقط فيجني أموالًا يستحيل معرفة عددها، يشتري بها ضِياعًا كاملة، ذات مرة اشترى ضيعة وأعطوه عبيدها الشغيلة فوق البيعة، فقسمهم إلى نصفين، الفريق الأول وزع عليهم أعمالًا منزلية، كالطهي وترتيب الفراش وتقديم الطعام وتنسيق الزهور، والنصف الآخر وزعهم على العمل في الحقول، وهم الأكثر بؤسًا من أي بشر آخرين فوق هذا الكوكب، فلا يحق لهم الأكل من الزرع الذي يغرسون، ولا يشمون الورود التي يقطفون، وقد كان السيد هو صاحب الحق الوحيد في تحديد مواعيد تحميل المراكب بأطنان الفاكهة والخضراوات، تمخر

سفينته البحر بالمحاصيل فتعود محملة بالبُنّ والنقود، وقد كنتُ أنا من عبيد الحقول.

***

ذات يوم جاءني أبي فرحًا وهو ينادي: يا يومبا، يا يومبا، لقد قرر السيد أن يصطحبك معه على متن سفينته التي ستُبحرُ بالمنتجات إلى البلاد البعيدة، لا أخفيكِ سرًّا يا صغيرتي، فقد فرحتُ فرحًا كبيرًا، لدرجة أن بعض الأجهزة الحيوية في جسدي تعطلت للحظات عن العمل، لكنني بعد أن تنبهتُ وعدتُ من السكْرة، اكتشفتُ أنني لو أبحرتُ مع فريق السفينة فسوف أترك أبي وحيدًا، وقد سنَّ سيدنا خلال السنوات القليلة الفائتة قانونًا من الضروري أن تعرفيه لتُقدري موقفي بشكل سليم، عندما تذهب صحة العبد ويصبح من المسنين تؤخذ منه مزايا العيش الكريم، فلا يحق له أن يشارك في العمل أو يتقاضي أجرًا عن شيء، بل ينفق عليه أحد أبنائه أو أحفاده، ويصبح الجد العجوز في الغالب مسؤولًا من أطفال العائلة أو الأقارب العطوفين، لأن نسله من الرجال الأشداء ليس لديهم الوقت للعناية به، فهم يعملون في فريق عبيد البيوت أو عبيد الحقول، لكن، والحق أقول، كان السيد يخطب فينا بنبرة رقيقة، يحدثنا كثيرًا عن مسؤوليته تجاه المسنين، يتحدث عن تاريخهم المشرف في العمل ويعدهم بتحسين أوضاعهم الصحية في المستقبل، لكن هذا المستقبل لا يجيء أبدًا.

رفع أبي يديه إلى السماء ودعا لي، ثم التفت إليَّ وقال: عندما تصيحون «بانت فيلكا» سأسمعكم من هُنا يا يومبا، وماذا تكون فيلكا هذه يا أبي؟ إنها جزيرة في بلاد العرب يا ولدي، كنتُ أبحر إليها مع أبو سيْدنا وأنا في مثل عُمرك، نبتاع منها جلود الحيوانات والأصواف الوبرية ولآلئ البحر، عندما تظهر الجزيرة كنا نشعر بالأمان، وأننا خرجنا من سلطة البحر إلى عَمار اليابسة.

قلتُ لأبي سأبقى معك لأشرف على إطعامك وعلاجك، لكن أبي كان له رأي آخر، قال لي: اذهب يا يومبا وأبحر، فلا بد أن فوق هذه السحب ربًّا، وأن هذا الرداء السحابي الكبير هو ثياب الله، قال لي وهو يراقب طائرًا يفرد جناحيه ويحوم في الأعالي، ثم رأيت عينيه الضيقتين تتلألأن مثل العقيق وتلتمعان بسائل شفاف.

في الصباح التالي، وقبل أن يخرج النهار من الليل، ربت أبي كتفي وقال بنبرة من الصعب نسيانها: ستبحر يا يومبا عبر بحار كثيرة، أو عبر بحر واحد بأسماء مختلفة، لكن لا تنس أبدًا بأنك عبد، لا تنسق وراء أي ثورة، واعلم أن حياة الحرية لها ثمنها، ونحن يا ولدي ضعفاء، لا نملك أي شيء لندفعه.

وقفتُ مع رفاقي أمام سفينة السيد صاحب المال والتجارة، وبدأ بالفعل تدريبنا على الأعمال الشاقة التي تحتاج إلى قوة وصبر، ليس فقط التحميل والتعتيق وشد ألواح السقالات، لكنه كان يجعلنا نحن عبيد البحر نقرفص أمامه ليتلو علينا بعض التعليمات، قال لنا إن

الخرافات تهلك الرجال، وأنه لا يوجد في البحر إلا الأسماك الكبيرة والصغيرة فقط، ولا شيء اسمه عروس البحر، فهي سمكة عادية جدًّا اسمها خروف البحر، مثل كلب البحر وفرس النهر، ولكن لأن البحارة يشتاقون إلى النساء لكثرة مكوثهم بعيدًا عن اليابسة فتتهيأ لهم الخيالات.

بعد تلك العظة السريعة قام بشحننا في جماعات لنستقر فوق ظهر السفينة، ليس في أيادينا إلا الدعاء، ولا في أدمغتنا غير الترقُّب والخيالات.

«أعانني النوم على صفاء الذهن، فتنبأتُ أن البحر سيهيج في تلك الليلة، لذلك جمعتُ العبيد الذين لا يفقهون شيئًا عن أمور الإبحار ورحلات السُّفن، عندما بدأتْ تباشير الليل كنتُ أفكر بديلًا عنهم، وكأنني وحدي شركة تجارية كاملة، فيها عمال شحن وتفريغ وموظفين حسابات وجمارك».

دعكِ مما ذُكر في كتابكِ، فكل كتب التاريخ التي تتحدث عن أصحاب البشرة السوداء كتبها البيض، ولا يمكنها أن تصف الحوادث إلا من وجهة نظر أشخاص منعمين لم يشعروا يومًا بالجوع ولم يصارعوا الضواري ليفوزوا بالطعام.

***

دعيني أنبئكِ بشيء مهم، ستسمعين مني دائمًا كلمة «نحن» فالعبيد يقولونها كثيرًا، أما السيد صاحب السفينة والتجارة فيقول «أنا» وهذا الفرق لا بد أن تعرفيه منذ البداية.

بدأنا رحلة الإبحار بعد أن سلم عريف الملاحين البوصلات والخرائط لوكيل القبطان، وقد كنتُ لا أعرف من خبرة البحر ما يملأ دلوًا، في البداية شعرت بدوار وكدت أنكفئ على بوزي عندما تحركت السفينة، فور إبحارها أصبحتْ مثل ريشة تسبح في الهواء، ما إن استقرت حتى أصبح الماء يحيط بنا من جميع الاتجاهات، قضينا ساعات وساعات نغني، كانت بعض الأغاني تولد في اللحظة، يمكنني أن أسمِّي تلك الأناشيد ابنة البحر، فقد ارتجلناها من رجف قلوبنا، كان السيد يجلس في صومعته المجهزة بكل وسائل الراحة بجوار قُمرة القيادة، يسمعنا ويبتسم، رغم أن الدافع الوحيد لاختراع تلك الابتهالات هو الخوف.

«لم يكن في بال الشغيلة أي هموم تُذكر، فهم يأكلون وينامون مثل الدواب، لا يشغلون أنفسهم بالتفكير في تحسين حال كوكب الأرض، مثلما نفعل نحن أصحاب التجارة، حتى أنهم لا يعبأون لو قُيد أحدهم بالسلاسل وألقي في البحر، ينظرون إليه نظرة قطيع الماعز إلى عنزة مذبوحة، ثم ينصرفون إلى حالهم يأكلون ويشربون وهم سعداء».

توغلنا في البحر، أصبحتْ السفينة بأشرعتها البيضاء ورجالها وطاقمها لا تزيد على ريشة في جناح طائر، خرج السيد من صومعته وهو يطقطق عظامه، قال وعلامات الكسل بادية على ملامحه: هل لدى أحد منكم حكاية يرويها لنا؟ طمستْ الرغبة في النعاس تفكيري فلم أرد، قاتلتْني حاجة ملحة إلى النوم، انتبهتُ إلى صوت ينطق باسمي، يا يومبا، يا يومبا، كان صاحبي البدين، بعد أن زالتْ غفوتي اللحظية اقترح البدين أن أحكي حكاية مُسلية للسيد، بعد مرور وقت طويل أطلق يدي التي كان ممسكًا بها، وشرع يحدث سيدنا عن مهارتي في الحكي، لم تكن لديَّ حكايات، لكن الأمر لم يعد بيدي بعد أن وقع الاختيار عليَّ بالإجماع لأحكي، قصة وحيدة كان أبي لا يمل حكيها لنا ونحن صغار، كان اسم القصة «أربعون رجلًا في القدور الفخارية» قال أبي أنه تعلمها من أهل فيلكا، ملامحها الرئيسية تائهة من رأسي الآن، لم تكن هناك فرصة للمراجعة، تحلقوا حولي خلال ثوانٍ، أصبحتُ في منتصف الدائرة، وعليَّ بأي طريقة أن أتذكر، وإلا... ليس فيها إلا، فقد أوصاني أبي: لا تغضب سيدك أبدًا ولا تثُر عليه، فالثائر يا ولدي لا ينام، يخيرونه بين سلب حريته أو سلب حياته، أما المطيع فيمكنه دائمًا أن يستمتع بجزء لا بأس به من الحياة الآمنة، تذكرتُ بداية خيط الحكاية بدافع الخوف، كانوا قد أنصتوا وحلّ صمت، فدعوت الله أن يوفقني وتعجبهم قصتي.

«في بعض الأحيان كنتُ أقترح على عريف الملاحين أن يختار شخصًا منهم يحكي لنا حكاية، أسمعها ليس لأنها شيقة أو مفيدة، فأغلب حكاياتهم مملة ومكررة، لكني كنت أود أن أعرف في ماذا يفكر هؤلاء العبيد؟ وعلى أي نحو يرون العالم من حولهم، ما هو الدين بالنسبة إليهم، ما هو الموت؟ الأبوة، المرأة، العقل، العائلة، الحرب، ولأنهم لا يصارحوننا بأفكارهم على نحو واضح؛ فقد كانوا يدسّون آراءهم الحقيقية في قصصهم».

فرحتُ جدًّا لأنني سوف أحكي قصة أورثني أبي إياها، ومعنى ذلك أن أبي لن يموت كليًّا، بدا غريبًا أن تسترعي حكاية خرافية انتباه الناس وتجعلهم ينصتون بهذا الشكل، الجميع تقرفصوا وهم راغبون في السماع، تحشرجت الكلمات أولًا في زوري، ثم سرعان ما تذكرتُ بداية الحكاية كما أعرفها.

***

لكن قبل أن أقص شيئًا جرى ناحيتنا مساعد القبطان وهو يشير إلى اتجاه معين وقال: توجهوا جميعًا إلى مقدمة السفينة، لأننا بعد قليل سندخل منطقة أعالي البحار، ولا بد أن نثقل مقدمة السفينة حتى لا تنقلب إلى الخلف مثل صفحة كتاب، توقفنا عن الحكي والطبل والغناء، طقطقت عظامي من الخوف ولم أستطع التفكير، جذبني

صاحبي السمين إلى بوز السفينة التي كانت تتلوى تحت قصف الأمواج، تقرفصنا في الأركان وانتظرنا الأوامر.

«عندما تأكدتْ نبوءتي بأن البحر غير مستقر، بدأتُ أفكر، كيف يمكن بعقل واحد أن أنقذ هذه الكائنات التي لا تفعل في الحياة إلا الأكل والثرثرة؟ كان أبي يحكي لي قصصًا لا تنتهي عن غبائهم، فذات مرة استعمر جزيرة آهلة بتلك المخلوقات السوداء، كانت أنوفهم مفلطحة وآذانهم صغيرة، توقَّع أبي أنهم سيشفطون جميع روائح العالم في شمة واحدة، كما توقع أيضًا أنهم بسبب ضآلة آذانهم لن يتمكنوا من سماع صوته».

وقف السيد يدير الدفة مع البحارة كيفما يرى، وخلال ثوانٍ كانت السفينة تنزل وتعلو مثل قشَّة، فأصبحتُ لا أرى أمامي شيئًا، شُبه لي أن الماء المالح لطمني فأخذ معه جزءًا من وجهي، لم أشعر إلا والماء يغطي ركبتي، استعملتُ يدى كمجدافين وأنا أحاول الإمساك بأي شيء، عندما فتحت عيني رأيتُ دلاء تتحرك في جميع الاتجاهات كأجنحة الطير، تغرف من السفينة وتعيد المياه إلى البحر، أمسكتُ بواحد وفعلتُ مثلما يفعلون، أحاط الزَبَد بالسفينة فأصبح كل شيء خارج مدى البصر، كانت بعض الأسماك قد قفزت ثم كُتب لها بعودتها إلى البحر عمر جديد، سحبنا الدلاء بالأحبال المعلقة في بكرات فوق الصاري، نزحنا الماء بسرعة كي لا تثقل السفينة ونغرق جميعًا.

بعد قليل صعدتْ سفينتنا شيئًا يشبه هضبة مائية، ثم سرعان ما انحدرنا إلى جرف كأننا سقطنا في حفرة، لم أعد متأكدًا، هل الماء المنهمر يجري تحتنا أم أمامنا أم فوقنا؟ عندما انزلقنا منكفئين في اتجاه واحد كاد قلبي أن ينخلع، شُبه لي أنه تعلق هناك، في الهواء، كان الماء يراوغنا كأنه كائن حي، يسعى إلى تخويفنا باتخاذه أشكالًا وهيئات من تلك التي تتسلل إلى الأحلام بعد يوم عمل شاق. طارت مغرفة من يد الطباخ، خرج عريف الملاحين وهو يحمل منظارًا نحاسيًا في يد، وفي اليد الأخري بوق الضباب.

استقرت السفينة قليلًا، فسمعتُ صوتًا كالسكين فوق حجر المسن، كدتُ أستلقي على ظهري، أخذني الجزء الملتحم من السماء بقوس البحر، خُيِّل لي أنني قابع في فقاعة، لو هزتها يد كبيرة سأتقلب فيها ضئيلًا مثل حبة أرز في بالون، تماسكتُ حتى لا أبدو ضعيفًا أو خائفًا، وحتى أكون مستعدًا بشكل دائم لعدم مخالفة الأوامر، فقد حكى لي صاحبي السمين الذي أبحر أكثر من مرة، أن السيد عندما يغضب على أحد يجعله يقوم وحده بتشغيل المضخات أو صعود سلالم الصاري، وكم من مرة أطاحت الرياح بالرجال من فوق الشراع مثل الذباب، حتى أن السيد كان يسمي الصاري «صانع الأرامل».

لم أعد أهتم بالوصول سريعًا، بل لم أعد أهتم بالوصول أصلًا، لم تساعدني بطولات داود ولا ابتلاء أيوب على التمسك بأي أمل، فقط

كنتُ قلقًا على أبي، فلو ابتلعني البحر سيضطره العوز لقرقشة أوراق الشجر أو ابتلاع لعابه ليخدع الجوع.

***

عيَّن السيد نوبة حراسة كلهم من العبيد، رئيسهم فقط كان رجلًا أبيض، دائمًا لا يفعل السادة سوى أنهم يأمروننا فقط، ومهمتنا أن نحول ذلك الكلام الدائر في عقولهم إلى أفعال، نحقق لهم أحلامهم ونتحمل بديلًا عنهم الصدمات والشدائد، نرشو الرياح ونصطاد لهم الطرائد، نقتل أعداءهم ونغني لنعدل أمزجتهم، حتى الحكايات التي تؤكد تفوقهم، نحن نؤلفها لنقصها عليهم.

«**قال أبي أن تلك المخلوقات كانت تمثل له اكتشافًا، لكنه احتار في معاملتهم، فلا هو يعرف لغتهم ولا هم يفهمون كلامه، فقال لهم بطريقة الإشارة، أنه سيذهب ويأتي بأسلحة ليذبحهم، فهزوا رؤوسهم موافقين على كلامه، وعندما عاد إليهم وفي يده السيف، ظنوا أنه جلب لهم هدية من سفينته، فعرف على الفور أن ذكاءهم محدود للغاية، وبدأ يعاملهم على هذا الأساس**».

هاج البحر من جديد دون إنذارات مسبقة، ارتفعتْ الأمواج وعلت مقدمة السفينة، كمرج تفجرت الأرض تحت أشجاره، أصبحنا كمن يدخل نفقًا مائيًّا يطوينا بداخله، غاب عقلي قليلًا فرأيتُ

وكيل القبطان يدير الدفة وهو يتلو علينا كلامًا يشبه التعاويذ «شمال شمال شرقي، جنوب جنوب غربي»، فاقترب منه القبطان، أمسكه من تلابيبه وأخذ يهز صدريته «في الموت لا توجد اتجاهات، نحن نغرق»، في تلك اللحظات فكرتُ في أمر واحد، وأظن أن الجميع فكروا في الأمر نفسه، لو أن السفينة غرقت بمن عليها فالرجل الوحيد الذي سيبقى على قيد الحياة هو أنا.

كان استسلامنا نحن العبيد يعني انهيار من هم ليسوا عبيدًا، فالجميع في البحر أبطال حتى يصلوا إلى اليابسة، أما في قلب الخطر؛ فالأبطال هم الذين يفكرون في إنقاذ الجميع.

بعد أن هجم علينا البحر لم أعد أصدق كلام سيدنا، فقد كان يقول دائمًا «أريد أن أبني سفنًا لا تغرق أبدًا، ولا يُفقد منها أي رجل» تذكرتُ ذلك الكلام عندما أصبحنا معرضين جميعًا للموت، والسفينة بالفعل تغرق.

اقترب مني رجل لا أعرفه، فتح كتابًا كبيرًا وأخذ يتلو شيئًا كالصلاة، عندما ارتفعت الأمواج أكثر جلس في ركن يبكي، ثم قال كأنه يناجي نفسه «ما دمنا لم نر الغربان فنحن بعيدون جدًّا عن أي يابسة، سامحني يا رب».

ارتفعت أمامنا جبال ضبابية، تتكور مثل بالون ثم تنبسط كالرغيف، احترنا في معرفة مكاننا بالتحديد، رأيت أمامي ما يشبه الأرض، كنتُ كأنني أحلم، تمنيتُ أن تكون جزيرة حقيقية هذه

المرة، عندما هاجت العاصفة خفقت قلوبنا وتعذرت الرؤية، غمرتنا المياه لا نعلم من أين، هل من بقايا تلاطم الأمواج أم من فوائض السُّحب؟ استسلمنا تمامًا، مثل براعم تحت قصف المناجل.

قبل ركوب البحر كنتُ أعتقد أن الجزر من صنع البشر، والآن اكتشفتُ أن البشر أنفسهم جزء ضئيل متناهي الصِغَر من الطبيعة الكبيرة.

«ما يريده البحر سوف يناله».

كان يجب عليَّ ألا أتذكر هذه المقولة المحبطة الآن، بل من الأفضل أن أتذكر الرجل الذي عاش أربعمائة سنة رغم غرق سفينته في المحيط، أو جنيات البحر الجميلات وهن يحملن الرجال فوق شعورهن الطويلة ويتزوجن منهم، أو الجزيرة المحفور بها تجويف يؤوي الغارقين ويمنحهم حياة جديدة.

«ربطهم أبي بحبل واحد وجلبهم إلى أرضنا ليعملوا بها، لكن كانت لهم تصرفات غريبة، فأثناء الليل يضعون آذانهم الصغيرة فوق صدور بعضهم بعضًا، يسمعون تنهداتهم ثم يترجمونها لنا بألفاظ قليلة، وحتى الآن لم أفهم مغزى مثل هذه الحركات».

سرعان ما تكسَّرتْ الأمواج قبل أن تغمرنا المياه مرة أخرى، أجلتُ بناظريَّ أبحث عن أي فنار قريب يمكن أن يرشدنا لمكان نعرفه، بعد قليل شُبه لي أنني رأيتُ فنارًا يحترق، لكن الأمور عادت إلى طبيعتها في عقلي، بدأ الدوي يهدأ في أذنيّ، رأيتُ أمامي وكيل القبطان يرفع

يده بإشارة غامضة، لم تكن الإشارة لي، بل لعريف الملاحين، ومعناها الذي فهمته فيما بعد أن خطرًا وشيكًا يهددنا، ودون أن أعرف نوع هذا الخطر حاولتُ أن أتذكر بعض الأناشيد التي ارتجلناها منذ قليل، لكن للأسف، لم أتذكر نغمة واحدة أو كلمة أُلعِّب بها شفتيَّ.

قال وكيل القبطان أننا توقفنا بسبب جسم كبير أسفل السفينة، اهتززنا جميعًا دون أن نعرف بما ارتطمنا.

مرت الدقائق ثقيلة جدًا، سرعان ما رأينا أمامنا شيئًا يشبه جزيرة يغلفها الضباب من كل جانب، كأنها امرأة كبيرة متدثرة تنتظرنا في حلم، غاب اللون الأخضر لأشجار وأعشاب الجزيرة التي كانت قريبة منا، لم يبق إلا أن نصطدم بهذه الكتلة الضخمة من الأرض والشعاب، فأمرنا سيدنا أن نقف فوق حواف السفينة، كان كل منا يحمل رمحًا ثلاثي الشُّعب، وسيف من سيوف القطلس، أصخنا السمع فلم نسمع أي شيء، حتى حركة السفينة كانت ناعمة كأنها تسير في زيت، المياه بساط حريري صافٍ، والغيوم تنهمر فوق رؤوسنا بشتى الألوان، لا أعرف إن كنا نقترب من الجزيرة أم نبتعد عنها، وهل هذا الجسم المغلف بالضباب أمامنا أم فوقنا؟

«لم يُثر عقول تلك الكائنات أي شيء، فقد كانوا بلداء بشكل لا يُصدق، لدرجة أنني طلبتُ من أبي أن يعيدهم إلى الجزيرة مرة أخرى، لأن صفقة جلبهم لم تكن موفقة، فقد قضوا بنهمهم على شوالات الغلال مثل القوارض، وسرقوا الدجاج والأرانب مثل الثعالب، لكن أبي رفض

أن يُعيدهم إلى غابتهم الصغيرة، واكتشفتُ بعد مرور بضع سنوات أنه كان مُحقًّا، فقد نفعوني أكبر نفع في تحميل سفينتي التجارية العملاقة».

صاح أحد زملائي من حاملي الرماح: «مخلوقات الجزيرة هي التي تسحبنا، هذه جزيرة غارقة، وما نراه ليس إلا أعشاب وأصداف وأحجار إسفنجية تمتص السفن»، وصاح زميل آخر: «هذه الجزيرة مصنوعة من أنفاس حيتان البحر، هنا تضخ الكائنات العملاقة أخاديد للبحيرات والأنهار، والآن تتنفس أمامنا مخلوقات غير مرئية»، قال شاب يرتجف من الخوف: «لا تصدقوا ما يصلكم من أصوات، فلم نسمع من قبل عن جزيرة تلاطف إنسانًا».

***

عندما جرفت الأمواج سفينتنا تغيرتْ وجهتها، ضرب بوزها شيئًا جامدًا سرعان ما لان، شُبه لي أن السفينة ركبت فوق هذا الشيء، وبدت المياه الهائجة أكثر وداعة وأقل تحطيمًا، حتى أننا لم نعد نسمع إلا خرير الماء الهامس وزقزقة البلابل، بعد أن تبدل الحال إلى أمان مؤقت تضاربتْ مشاعري لوهلة، هل سنحتفل بنجاتنا أم سنظل على حال الاستغفار والتوبة؟ أطبق الصمت علينا لدرجة سماع حشرجات أنفاسنا، بدأنا نصغي لصوت حركة السفينة في الماء، تقريبًا كانت ثابتة في مكانها، أو تتحرك بيسر لدرجة أننا لا نشعر بتقدمها، تسلقتُ

عمود الصاري حتى أكتشف أين نحن، فرأيتُ أغرب مشهد يمكن أن تقع عليه عين، قوس كبير من اليابسة يوحي بأننا أمام جزيرة لم يطأها من قبل إنسان، كانت مستعمرة من الأرانب السوداء، قطعان وقطعان تقفز هنا وهناك، حولها مروج خضراء وفواكه، رأيت فقمات تلعب بأجسادها الرخوة عند فاصل اليابسة عن الماء، كانت الجزيرة عبارة عن كوخ كبير يشبه الحصن، لا يوجد بها أثر لبشر أو كلب أو ماشية، أنصت فلم أسمع أحدًا ينادي «بانت فيلكا».

«قال رجل عجوز جدًّا من تلك المخلوقات أنهم يسمعون فوق صدور بعضهم البعض صوت الأفلاك، يحددون على أساسه خط سير النجوم وأقدار البشر، كان كلامه غريبًا لم نسمع به من قبل، رفض أبي رفضًا باتًّا مثل هذه التصورات لأنها تنافي العقل، كما قال أبي أيضًا إنهم تعلموا منا اللغة حديثًا، لذلك فهم لا يفقهون معاني أغلب ما نأمرهم به، فقد كانوا يضعون كلمات مهمة في غير أماكنها؛ الله، الأب، الشر، المرأة. أكد أبي عليَّ: لا تأخذ كلامهم أو تصرفاتهم على محمل الجد. ومنذ ذلك الدرس وأنا أعاملهم ككائنات مثل الوعل أو الدب أو الفيل، فهم لا يستحقون أكثر من ذلك، لأن نمو عقلهم متأخر كثيرًا عن البشر، ولكنهم يتصورون دائمًا غير ذلك».

عندما أصبحنا ملاصقين للجزيرة قال أحد عبيد البحر «هذه جزيرة المنديل، إياكم والاقتراب منها» لكننا اقتربنا منها مثلما يقترب الإنسان من قدره، أخذ الرجل الذي حذرنا يحكي لنا حكاية الجزيرة

كما هي منقوشة في خياله، وماذا تكون جزيرة المنديل هذه؟ عندما سألناه وأعطيناه الثقة شعر بأهميته وبدأ يجيبنا، إنها أجمل جزيرة عرفها البحارة، منذ قديم الزمان لمحها ساحر كان يصطاد بمركبه الصغير، وعندما رأى كل هذا الجمال خاف أن يفسدها البشر بأطماعهم وانحلالهم، فصرَّها في منديل وأخذها معه في المركب، ومنذ ذلك الوقت لم ير أحد الجزيرة، مرت السنون وتوارث المنديل أبناء الساحر وأحفاده، وبعد أربعمائة سنة فُك السحر وأصبح يمكن للناس رؤية الجزيرة مرة أخرى، ونحن أول من رآها الآن بعد عودتها إلى طبيعتها.

كان كلام الرجل غير معقول، لكننا تحمسنا له بشكل كبير، فما أمتع أن يشعر أحد بأنه اختُص بمثل هذه الكرامة الإلهية الفريدة، شكرنا جميعًا الرب الذي جعل حظنا في هذه الجزيرة الجميلة، ولم يوقعنا في مكان آخر مثل جزيرة رأس الدب، تلك الجزيرة التي يُسمع فيها ليل نهار أصوات الغرقى وهي تهز أشرعة السفن التي تقترب منها، وشكرنا الرب أيضًا لأننا لم نقع في جزيرة «العنقاء الكريهة» فقد كانت كائناتها الغريبة تختطف الرجال، ثم تقوم رئيستهم العنقاء بتعذيب المحتجزين، فتعلقهم من شعورهم في أغصان الشجر، ولا تتركهم إلا بعد أن يتحللوا ويصيروا قبضة من تراب يُنثر في البحر.

«من بين العبيد كان هناك شاب اسمه يومبا، يجيد حكي القصص الخرافية، شارد دائمًا مثل شخص يرتب لارتكاب جريمة، يفعل الشيء ونقيضه في الوقت عينه، يضحك ضحكة عميقة ثم يبكي بأنَّات

مكتومة، لا أعرف من قبل أن تلك المخلوقات يمكنها أن تحزن مثلنا وتفرح، كل ما استطعتُ أن أفعله هو أن أراقب هذا الكائن الضخم، فلا بد أنه كان بإمكانه حمل شوالين دقيق فوق كتف واحدة، أو ذبح خروف ودسّه في جراب حماره، لكن بعد مراقبة دامت لأيام وليالٍ لم ألاحظ عليه أي سرقة، فقلتُ في نفسي، يبدو أن المسألة لا تتعلق بسرقة الطعام فقط، مؤكد أنه يخطط لسرقة شيء أكبر من ذلك، فقد علمني أبي أن الوثوق التام بتلك المخلوقات سيسحب بساط السيادة من تحت أقدامنا بأسرع مما نتصور».

بعد أن وصلنا إلى حالة أشبه بالنوم الجماعي خرج السيد وهو يبحث عن قبعته وسيجاره، وجَّه تعليماته إلى الربان بأن يغير اتجاه الدفة، فرد عليه الربان بأدب، أن ذلك مستحيل، لأن ذيل السفينة سيرتطم بالجزيرة ويتحطم، قال السيد بثقة مفرطة وهو يبحث عن ثِقاب لسيجاره: «هذه الجزيرة غارقة بالفعل، لكن لا يوجد فوقها أي أشباح».

كنتُ قد سمعتُ من قبل عن جزر غارقة، وأحيانًا مدن بأكملها، ليس ذلك هو المخيف في حد ذاته، لكن أكثر ما يستحق التأمل والتفكير هو الحديث عن المخلوقات التي تتشكل بعد الغرق، قال صاحبي السمين ذات مرة أنه رأى خلال رحلة بحرية كائنات غارقة تتحرك أمامه بعد أن تحولت إلى مخلوقات بحرية، منها حصان الماء، قال أن منظره جميل جدا، في غرة رأسه عُرف من صدف، وله قدمان أماميتان فقط، وعجلة خلفية تقلب الماء بديلة عن قائميه الخلفيين،

عندما كان يشعر باقتراب أي مخلوق منه يُخفي العجلة الدوارة بين عجيزته، كما حكى صاحبي أيضًا أنه رأى جزرًا طافية وعفاريت ووحوشًا على هيئة أسماك ودلافين، لكن الخوف كان يسيطر عليه أثناء الليل، عندما يشعر بأنه طافٍ في رحلة إلى النجوم، فالبحر الكبير يبتلع كل شيء ويُغيِّبهُ عن الأنظار، حتى الشمس والظلام.

«قرر أبي شيئًا رأيتُ أنه صائب، فبعد اكتشافه أن جميع المصائب لها علاقة بكبار السن قرر عزلهم، أنشأ لهم أجرانًا كبيرة تفصلهم عن ذويهم الأقوياء، كان يريد أن يدرب الأجيال الجديدة منهم على تشغيل الجزء اليسير الذي يعمل في أدمغتهم، ولما لاحظ أبي أن ذلك يمكن أن يجعلهم يثورون قال لأبنائهم: «بعد سن معينة يخرف العجائز ويصبح من الخطورة أن يعيشوا معكم في مكان واحد» وقد ساعد على تأكيد ذلك التصور أن كبار السن بالفعل كانوا يثرثرون بكلام غير مترابط، يضحكون في موضع الحزن أو يبكون بلا سبب واضح، وبدأوا بالفعل يبتعدون عن ذويهم، ويفكرون فقط في مصالحهم الخاصة».

خرج علينا رجل أبيض يمسك في يده خريطة من جلد الماعز، فردها أمامه، ثم شد صدره وأخذ يشرح للسيد تقديره للموقف الراهن، وعند نقطة معينة غرز إصبعه فوق الخريطة، صاح في البحارة وعروق وجهه تنفر: «طبقًا لحساباتي الدقيقة فنحن الآن خرجنا بالسفينة من الماء، وقطعنا سبعة أميال داخل الغابات».

بعد مثل هذا الكلام لم يعد أمامي إلا تخيل سفينتنا قطعة حديد غارقة في قاع البحر، تتناثر حمولتها من المحاصيل الزراعية بطول عشرات الأميال، ثم نتحول جميعًا بعد ذلك إلى كائنات بحرية، تُستبدل أقدامنا بذيول وتتحول أذرعنا إلى زعانف، لم أتصور يا عزيزتي رغم كل شيء أن تتحول سفينتنا إلى الكشف الذي يضم السفن الغارقة، لم أصدق أبدًا أنني سأموت بهذه السهولة، ورغم أن الموت هو الشيء الوحيد القابل للتحقق في هذه الحياة فلم أتخيله، بل تصورت أنني سأظل أتنفس لمئات السنين في قاع البحر، لكنني فقط لن أتحرك من مكاني مثل أشجار الماء، ربما سنشبه جميعًا جزيرة الرأس الأخضر، تلك الجزيرة التي غرقت بغابتها الصغيرة في البحر ولا تزال أشجارها تنمو وتطرح الثمار، هل تعرفين يا صغيرتي لماذا لم أستسلم للموت؟ لأنني أشعر بأن الحياة تحتاج إليَّ أكثر من سيدي، فالسيد ترك زوجته وأولاده تحت رعاية مئة وخمسين عبدًا، أما أنا فتركتُ أبي في العراء، لا تستره إلا ثياب الرب.

***

توقف الربان الخبير عن التجول داخل القمرة إيابًا وذهابًا، ثم قال وهو ينظر إلى بوصلته: على بُعد خمسين ميلًا بحريًّا يوجد فنار، غفوت للمحة، فرأيت نارًا تتحرك في البعيد فوق الماء، اقتربتْ وأطبقتْ

علينا حتى أصبحتْ أكبر من حجم سفينتنا، فصرختُ وخرجتْ مني شخرة فظيعة، هزني صاحبي السمين وحاول أن يسندني حتى لا أقع على بوزي وتتناثر أسناني مثل حبات الذرة بجوار الدفة، فتحتُ عيني وأنا أنظر إلى النجوم التي تبرق وتراقبني من السماء كالعيون، وقفتُ أجرب قدميَّ كأنني أمشي داخل منام.

كنتُ أعلم أن فكرة الإبحار مثل الحرب، اتخاذ القرار بخوضها من أسهل ما يمكن، لكن الصعوبة كلها تكمن في إمكانية العودة، فوق اليابسة، لو تأخرنا نصف نهار سيرسلون إلينا الخفر بالمشاعل ينقبون عنا في كل شبر، أما قوانين البحر فمختلفة عن ذلك، لأن البحث عن التائهين فيه لا يبدأ قبل عامين من تاريخ الغياب.

في أوقات الخطر -وما أكثرها- كنتُ أتمنى أن تجف البحار، فمؤكد لن تكون هناك مشكلة لو أننا وقعنا بسفينتنا في حفرة كبيرة مليئة بالملح والمحار وهياكل السفن الغارقة.

«بعد سنوات نجح أبي أخيرًا في عملية الفصل، فقد كان المسنون يستدرون العطف دائمًا وهم يُخبروننا بأوهامهم وخرافاتهم، يشغلون أبناءهم عن العمل الجاد برعايتهم، وتلك العرقلة المقصودة دليل واضح على أن هذه المخلوقات ليست مثلنا كما تظن، ولكنهم نتيجة تزاوج كائنات مختلطة في غابة مجهولة لم يكتشفها أحد، لذا، لا بد أن تعين لهم رجل دين يحثهم على الرضا بفقرهم، وكلما أفلس حدَّثهم

عن نهاية العالم، كان هذا هو رأي أبي الذي كرره أمامي كثيرًا، وقد أصبحت على قناعة تامة به».

بعد قليل توقفت بنا السفينة عن الإبحار، توقفتْ تمامًا، غطتنا سحابة مستديرة شبيهة بقشرة البيضة، فسرحتُ وخفتُ، لم أعد يا صغيرتي أستطيع الفصل بين ما يحدث بالفعل وما أتخيله، رأيتُ عربة تشبه العجلات الحربية في المعارك القديمة، مكونة من غضاريف وجلود وبرية، تجرها أربعة وحوش بحرية، يركبها وحش رابع أكبر في الحجم وله صوت، ما أن رست السفينة فوق الجزيرة حتى توقفت العربة، ونزل منها الوحش، هزني زميلي صائحًا: «يومبا، يومبا، السيد يناديك، أين ذهبت يا يومبا؟» انتبهت وأنا لا أدري إن كنت نمت أم شُبه لي ذلك، أخذني زميلي من حافة العالم وقذف بي مباشرة أمام الرجل الأبيض الغاضب، وقفت أمامه كالصنم، طلب مني أن أتوجه إلى دفة السفينة لأحرسها من هجمات الوحوش، ومن تطفل أي مخلوقات لا نعرفها، فتعجبتُ كيف غيَّر سيدنا عقيدته بهذه السرعة؟ فقبل ركوب البحر لم يكن مؤمنًا بوجود وحوش أو أشباح.

أمسكتُ بالدفة كالمنوَّم، طلب السيد من زملائي حراسة ميمنة وميسرة ومؤخرة السفينة، وافقوا على الفور دون أن يعرفوا مما سيحرسونها، فهم لا يفقهون شيئًا عن طبيعة الهجوم المتوقع، كان سيدنا يبتغي مجدًا كبيرًا، شرط أن نحققه له بأيادينا العارية، أما إمكانياته التي يجيدها بالفعل فهي التعبير عن كل شيء بطلاقة، مجرد

كلام يسيطر به علينا، أغلبه خليط من لغات لا نفهم معظمها، كنتُ أصبِّرُ نفسي بأن البشر متساوون في أشياء كثيرة غير لون البشرة، كلنا نشبه بعضنا ما دام لا يوجد نهر يطهرنا من الموت.

أثناء سرحاني هبط علينا الليل فأصبحت سفينتنا مثل قمع فضي لا نرى إلا بوزه، هبط الظلام ورأينا القمر معلقًا فوقنا مثل قنديل بلون الرمال، كانت سفينتنا تنزلق إلى قدرها ونحن جميعًا عاجزون عن فعل شيء، كأن ما سينقذنا هو فعل الزمن لا جهد البشر.

عندما نظرتُ إلى أعلى شعرتُ أن القوس الذي يلحم حدود الماء مع حافة السماء قد تلاشى، سرعان ما ابتلع البحر كل شيء، حتى أفكارنا المسبقة عن إمكانية النجاة، أصبحتْ تصوراتنا بيضاء، وعُدنا كما ولدتنا أمهاتنا.

«أثناء رحلاتنا البحرية كان العبيد يتصرفون على نحو غير متوقع، يغنون ويرقصون ويحكون القصص، أنغام غريبة وقصص متشعبة تؤكد فكرة أنهم نسل نتج عن تزاوج كائنات الغابة، لا يأبهون بالأخطار ولا يحملون همًّا للعواقب، يحدقون في المياه مثل أي ثور يتأمل ظله، ثم لا يلبثون يقفزون في البحر بشجاعة غريبة، لذلك كنا نراهم خير من ينفذون الأوامر بسبب تهورهم، وكما أن مولد الإنسان لا يكتمل إلا بموته، فمولد العبد لا يكتمل إلا بإخفاء بعض الكلمات عنه، وبالأخص كلمة حرية».

اقترب سيدنا من عبد عجوز وأخذ يتأمله، تحفَّزت ملامح الرجل لتلقي أمر ما، كان يريد أن يفعل أي شيء يرضي به صاحب السفينة والتجارة، لكن السيد أمره بفعل شيء غريب، طلب منه أن يغوص تحت السفينة ليستكشف طبيعة المكان الذي وقعنا فيه، وهل ما زلنا في الماء أم أن السفينة بالفعل تزحف فوق أجسام صلبة؟ فما كان من العبد العجوز إلا أن ضرب مسباره داخل الماء، ثم أخرجه وظل يتشممه بأنفه الجعد الكبير، بعد لحظات صاح معلنًا عن طبيعة المكان الذي علقت به سفينتنا: نحن الآن يا سيدي في ممر الأصداف غرب جزيرة رأس الدب، بدا عدم الفهم على ملامح سيدنا، لكنه -كالعادة- حاول إظهار تفوقه، فسأله: وهل يمكنك معرفة سبيل للخروج من هذا البحر؟ فقال الرجل بعد أن أطرق كأنه يعاين قدميه الحافيتين: لا، فمهمتي يا سيدي أن أعرف طبيعة الأماكن فقط.

***

عندما حل المساء توزع الرعب بيننا بالتساوي، ولم أسمع أحدًا حتى الآن ينادي «بانت فيلكا» كما قال لي أبي، وما ضاغف حجم خوفنا أن سفينتنا لم تكن مزودة بإضاءة أمامية قوية مثل باقي السفن، زاد شعوري الداخلي بالضيق عندما أصدر السيد أمرًا آخر لعجوز المسبار: انزل تحت السفينة بنفسك، فقال الرجل بكل براءة: ولكنني

يا سيدي لو فعلت ذلك فاحتمال كبير أن أموت، اقترب منه السيد وهو عاقد ذراعيه خلف ظهره: وما المشكلة في ذلك؟!

«ذات رحلة بحرية علقت سفينتنا فوق جسم غريب، فهمَّ عجوز من تلك الكائنات بأن يرمي نفسه في البحر طواعية، وعندما حاولت إثناءه عن هذا الفعل الأخرق، قال إن تعاليم قبيلته أن يفتدي العجائز الشباب بعد سن معينة، يوفرون لهم الطعام بقتل أنفسهم بطرق بشعة، أو يغطسون في الماء وهُم سعداء كدلافين، عندما وزنت طلبه في عقلي قلت لماذا لا أعلق في يده مسبارًا وأجعله يكتشف طبيعة المياه تحت سفينتنا، وبالمرة يحدد موقعنا بالضبط في البحر الكبير الهائج».

تنازل عجوز المسبار عن كبريائه وبكى، فما كان من سيدنا صاحب التجارة إلا أن أمر اثنين من العبيد أن يلقياه في البحر، فحملاه كما الزكيبة بين سواعدهما الكبيرة وألقياه دون تفكير، لم أذكر أنني سمعته يتألم، أو حتى يقول آه، وقفتُ متحيرًا ومُحدقًا بكتف صاحبي السمين، لم يكلف السيد خاطره ويلقي إلى العجوز بحبل لمساعدته، استغرق التفكير فيه أقل مما استغرق عندما كان يبحث عن مرساته الضائعة في بداية الرحلة.

العجيب في الأمر أن العبدين اللذين ألقيا بالعجوز في الماء كانا يُصلّيان، يقفان بخشوع ويبكيان كلما ذكر أحد أمامهما مقتطفات من كتب التعاليم الدينية.

بعد قليل، فاجأنا العجوز وخرج يمسح جانب السفينة بكفيه، سمعناه يقول: لقد عرفت كل شيء، أخرجوني، لقد عرفت أين نحن، مد إليه السيد الحبل عندما سمع منه هذا الكلام، فخرج الرجل مبتلًّا يلتقط أنفاسه بصعوبة ويقول بكلمات مرتعشة: إننا على بُعد قليل جدًّا من القاع، لكن تحتنا مباشرة سفينة غارقة، كانت محملة بالفولاذ الممغنط، فالتصق بها قعر سفينتنا.

عندما لمحْنا الرجل يلهث وكادت روحه أن تُزهق، تفشَّتْ فينا جميعًا مشاعر غاضبة كالحمى، غشتْنا رغبة قوية نحو أي فعل بطولي. عن نفسي، شعرت في تلك اللحظات أنني لا أقل من فارس يقف على مشارف معركة حامية فوق حصانه، لمح سيدنا انفعالنا الثائر بسبب ما حدث للعجوز، ولمحنا الذعر يستولي على نظراته إلينا، لكننا لم نتجاوز مرحلة الانفعال حفاظًا على آبائنا الذين تركناهم ضعافًا من خلفنا، وامتثالًا لتعاليم الخضوع التي تلقيناها من أمهاتنا أثناء التربية، فقد كن يخفن أن يفقدننا أكثر من خوفهن من أي خسارات أخرى.

«في تلك الرحلة البحرية تعرضنا لظروف صعبة، لطالما كنتُ أبحث بدوري عن مخرج لإنقاذ الجميع، فلو أنني توقفتُ للحظة واحدة عن التفكير كنا سنغرق جميعًا، عندما استهدَفنا البحر بأمواجه قلت ولمَ لا، أعطيت الكائنات الفرصة لأن يكونوا أحرارًا في تصرفاتهم، تصورتُ أن بإمكانهم إنقاذ السفينة، لكن ذلك لم يحدث إطلاقًا، فقد كانوا يقفزون في الماء بجنون مثل السمك الذي يشتاق

إلى البحر، كما أنهم استغلوا الحرية التي منحتهم إياها أسوأ استغلال، فما أن اهتزتْ السفينة بنا حتى هاجوا مثل القطيع، كادوا يحطمون السفينة بنا في عرض البحر، فحبستهم في عنبر بقعر السفينة كي أحفظ حياتهم، ووقعتْ كل الأعباء والمسؤوليات على كاهلي وحدي، وقد كنتُ بالفعل العقل المدبر والمنفذ لخطة إنقاذ السفينة ليس فقط بأفكاري، ولكن بساعديَّ، وحدي».

استدعى سيدنا الحراس وأمرهم أن يحبسونا في عنبر داخل تجويف السفينة، مكان في القاع تأنف الحيوانات الاقتراب منه، فقد خاف على حياته منا، لكنه بعد قليل فَقَدَ بوصلة التفكير وأخذ يصيح كالمجنون، «أخرجوهم.. أخرجوهم»، ثم استدعى جميع البحارة والحراس مرة أخرى، وعلى رأسهم الربان، وأسمعهم ما قاله عجوز البحر صاحب المسبار، فقرروا بالإجماع أن هذه المسألة ليس لها حل أبدًا، لكن العبد العجوز الذي اكتشف ورطتنا كان له رأي آخر، اقترح على السيد والبحارة والربان، وهم لا يتعدون ثمانية أشخاص ما يلي: الحل الوحيد هو أن يدفع العبيد، الذين هم نحن، والذين هم بلا عدد، يدفعون السفينة من الخلف وهم مرتكزون على حمولة الفولاذ التي ظهرت حوافها وهي تهتز كالخيال في الماء، وبالفعل، نزلنا خلف السفينة بدافع الخوف من الغرق، كان إحساسًا غريبًا أن نخاف من الشيء ونقيضه، فإن فشلنا في دفعها سنغرق لا محالة، ولو نجحت الخطة وعامت بالفعل فيمكن أن نسقط في الماء ونغرق، لم يكن لدينا

الوقت لنفكر، فقد رمى إلينا السادة الأطواق والحبال وظلوا يراقبوننا من أماكنهم الآمنة، هيلا هوب هيلا هوب، بدأت السفينة في التحرك بالفعل، وبدأ خيط الأمل يعود بعد أن ضعف وكاد يحترق، صدأتْ المياه، كأنها منقوع السفن الغارقة.

«لقد قرأتُ بعناية المذكرات التي تركها أبي، وكانت كلها معنية بطُرق تشغيل هذه الكائنات، خطَّ أبي بيده ما يشبه التعاليم؛ لا تتركهم يتحدثون إلى بعضهم البعض كثيرًا فذلك يجنبهم التمرد على الأوامر، وإذا ثار أحدهم استقطبه وحده، خُصّه بالمزايا، اطلب منه أن يخطب في رفاقه، اكتب له ما سيقوله واجعله يحفظه مثل اسمه قبل إلقائه، فثقة واحد منهم في نفسه ستفقدهم جميعًا ثقتهم في أنفسهم، إن لم تستطع إخضاعهم سُق عليهم واعظ يجيد التلون حسب ما تقتضيه الأمور، فتلك الكائنات تحن دائمًا إلى مرحلة الطفولة، لكنها مخلوقات مدمرة رغم كل شيء، لا تنس أن تُشعرهم بالعجز العقلي، وذلك ما فعلته خلال أغلب رحلاتي البحرية، فذات رحلة اقترحتُ على صديقي السياسي القديم أن يمنع بالقانون دخول هذه الكائنات المطاعم والحانات ومحلات الملابس، شأنها شأن الحيوانات المنزلية، وقد وعدني صديقي أنه سيدرس الأمر في أقرب وقت».

تحركت السفينة ببطء وعادت مرة أخرى إلى سُلطة الماء، فقفزنا فوق السطح ونحن في غاية الفرح، قرعنا الطبول وتذكرنا الأغاني التي غابت عن عقولنا ليومين كاملين، قلتُ للسيد وأنا مغمور

بالنصر: لقد ساهمتْ سواعدنا في تحسين الأمور، فقال وهو لا يزال يكتب مذكراته في دفتره المُغلف بجلد الضواري: هذا هو الذي أنقذنا وليست سواعدكم، وأشار بسبابته الملوثة بالحبر إلى رأسه، فقلتُ له: وماذا كنت ستفعل لو أننا غير موجودين معك يا سيدي بعد التصاق قعر السفينة بالمغناطيس؟ شدَّ صدره ليُطيل قليلًا من قامته وهو ينظر إلى قماش الصاري المرفرف وقال: كنا سنمزق الأشرعة ونصنع منها روافع ونجر مقدمة السفينة بالبكر والحبال، ولماذا لم تفعل ذلك يا سيدي بديلًا عن التضحية بنا؟ فقال: ولماذا نضحي بأشياء لها ثمن ما دام يمكننا التضحية بأشياء أخرى مجانية؟

هل كتب سيدنا هذا الكلام في الكتاب الذي في يدك؟ مؤكد لا، فهو لا يكتب الحقيقة، بل وجهة نظره.

وأنا ما جئت يا عزيزتي إلى هنا إلا لأصحح ما حدث، لأقول لكِ أن هذه الحياة مليئة بحكايات كثيرة كُتبت بالخطأ.

لم يبقَ في جوفي قبل أن أنصرف يا صغيرتي إلا سؤال واحد: هل أنتِ فيلكا؟

شركة الدخان[1]

«واستأنفتْ النوم بعد أن شربت جرعة من دواء صنعتْه بنفسها»

خيري شلبي - الوتد

(1) تدور أحداث هذه القصة قبل أيام قليلة من توقيع مصر على اتفاقية منظمة الصحة العالمية بشأن مكافحة التبغ وحظر إعلانات السجائر عام 2003.

عندما سمعتْ السيدة نادية أصوات تخبيط بالخارج لم تهتم في بادئ الأمر، فهي تسكن في الدور الحادي عشر ومن الصعب وصول أصوات الشارع إليها بهذا الوضوح، بعد قليل، فتحتْ الشباك المُطل على الطريق الدائري، أخرجتْ رأسها في حذر لتستطلع الأمر، لمحتْ حبلين غليظين يتدليان من أعلى ويعبران شباكها، ينتهيان في منتصف العمارة بطاولة خشبية تشبه مركبًا شراعيًّا صغيرًا، يقف فوقها شخصان، تطلع بهما الطاولة وتنزل، كانا ملتصقين بالجدار، كل منهما يمسك فرشاة أطول منه ويطلي جانب العمارة باللون الأبيض.

أثناء محاولتها معرفة ما يحدث دق جرس الباب، توجهت ببطء ونظرتْ من العين السحرية، فمنذ أن زارها أقاربها لمواساتها في فقدان زوجها لم تسمع صوت الجرس، ثلاثة أشهر وهي حريصة على التأكد أولًا قبل فتح الباب، قالت لنفسها وهي تُغلق عينًا وتركز عينها الأخرى على الفتحة الزجاجية الصغيرة «لا بد أن شركة التأمين أنهت الإجراءات وأرسلت موظفًا لأوقِّع له على الأوراق المطلوبة» واربتْ الباب وسألت الطارق أولًا:

«أي خدمة؟».

قبل أن يُجيبها تفحصته من فوق لتحت، كان يحمل أوراقًا في يد وقلمًا في اليد الأخرى:

«نحن شركة مالتي إنترناشيونال للدعاية والإعلان».

«أهلًا، أي خدمة».

«ممكن حضرتك توقعي لي على بعض الأوراق؟».

«أي أوراق؟».

نظرتْ أولًا إلى عُمق شقتها، كأنها تطمئن على أحد بالداخل، لا تريد إظهار أنها بمفردها، فتحت الباب شِبرًا آخر:

«حضرتِك مقيمة في الشقة 34 بالعقار رقم 222 شارع الصفوة طريق نزلة قليوب».

«آه، نعم، هذه هي شقتي، على ماذا أوقِّع قلت لي؟».

فتح الرجل ملفًّا وبدأ يراجع أوراقه ويرتبها:

«تُوقعي هُنا بأنكِ موافقة على دهان الواجهة التي يقع فيها شِباككِ».

«ادهنوا ما تريدون، ولكنني لن أوقِّع على أي شيء غير أوراق بوليصة تأمين زوجي الذي مات منذ ثلاثة أشهر».

نكَّس الرجل رأسه للحظة:

«الله يرحمه يا مدام».

ثم رفع رأسه بسرعة كأنه اكتفى بثانية واحدة حِدادًا، كان مندوب شركة الإعلانات يبالغ في تقدير شأن بعض السكان، آملًا أن يحالفه الحظ ويقنعهم بالموافقة على رسم إعلانات الشركة، وإلا، وإلا ماذا؟ ستُقصقص أطراف فطيرة الحوافز، وسيصبح كلامه الجاف مع العملاء ذريعة لخصم يومين فوق البيعة، في تلك الحالة لن يبقى له من الفطيرة إلا الفتات، انتبه وكأن أحدًا صفعه سهوًا:

«يجب أن توقعي يا مدام على هذه الأوراق كي نتمكن من البدء في عملنا، فقد وقَّع جميع السكان في الأدوار العشرة الذين تطل شققهم على الطريق الدائري، ولم يبق إلا ساكن الدور الحادي عشر والأخير، يعني حضرتك».

فتحتْ الباب أكثر وقالت:

«يا ابني يا حبيبي، أنا امرأة في الخامسة والخمسين، مات زوجي منذ ثلاثة أشهر وليس لديَّ أولاد، صبري المتبقي أوشك على النفاد، ضِقتُ بكل البشر، وخاصة الموظفين الذين يتكلمون بأدب عن أشياء لا أفهمها، يعني مَن هُم مثلك حضرتك تمامًا».

عاد المندوب يفكر في الفتات الذي سيتبقى من فطيرة الحوافز، ثم، ثم ماذا؟ لن يستطيع إقناع رئيس مجلس الإدارة بأنه فنان ضل طريقه إلى القسم التنفيذي، وأنه بإمكانه في لمح البصر إحداث طفرة في القسم الفني بشركة مالتي إنترناشيونال للدعاية والإعلان، يقول المندوب لنفسه مثل هذا الكلام كي يتحمل سخافات العملاء ومماطلاتهم، فقد قالوا له في آخر «ميتنج» للقسم التنفيذي أن الموظفين التقليديين عفى عليهم الزمن، كان في كل مرة يسمعها «عفّن عليهم الزمن» وقالوا له أيضًا لا بد أن يتحلى بالصبر، تقريبًا كان رئيسه يقصد أن «يتحلى بالكبت» دائما تصله الكلمات بانحراف بسيط عن المعنى المقصود، قرر المندوب بسرعة رفع شعار «إرضاء العميل فوق كل شيء» فقال بصوت رقيق:

«يا مدام، أرجوكِ، الأمر بسيط جدًّا، ستوقِّعين على ورقتين فقط من كل هذه الأوراق، ثم نبدأ نشوف شُغلنا، فبانتظارنا يومان من الشقاء والخطر، قدِّري ظروف عملي، فأنا لم أجلس منذ أربع ساعات، مفاصلي يا مدام لم تعد تتحمل النقاشات الطويلة، من فضلك، الأمر بسيط، بسيط جدًّا، مجرد توقيع».

اكتشفتْ السيدة نادية فجأة أنها لا تضع شيئًا على رأسها، بحثتْ حولها فلم تجد إيشاربًا أو أي قماشة بديلة تؤدي الغرض، عندما تذكرتْ أن المندوب يصلح لأن يكون ابنها توقفتْ عينها عن البحث، تأملتْ مرة أخرى الأوراق التي يحتفظ بها تحت إبطه وقالت:

«اختصر من فضلك، ماذا تريد بالضبط؟».

انتابتْ المندوب قشعريرة باردة، كان يريد أن يشعر بأنه سيكسب في جميع الأحوال، فقال كأنه أسطوانة مسجل عليها شعار الشركة:

«نحن شركة مالتي إنترناشيونال للدعاية والإعلان».

قاطعتْهُ السيدة نادية:

«قلت لي ذلك من قبل».

«إرضاء العميل هو غايتنا».

جملة تذكرها من محاضرة مطولة عن تطوير العمل بالشركة، أخرج استمارة مكتوبًا عليها م.ع، موافقة عميل، مدها أمام وجهها:

«أعطيني الفرصة لأكمل يا مدام، فشركتنا هي التي ستقوم بتنفيذ هذا الإعلان، ويجب أن نسلمه خلال أربعة عشر يومًا على الأكثر، وأنا من صباحية ربنا في مرحلة التوقيعات، ويمكن أن يُخصم مني حافز الإعلان لو تأخرتُ أكثر من ذلك».

«ومتى سيكون ذلك؟».

«أنا أقبض الحوافز يوم خمسة في الشهر».

«متى ستبدأون في تنفيذ الإعلان؟».

«حالًا يا مدام، لكن بعد موافقتك».

«ولماذا تتأخر، نفذ إعلانك واعتبر أنني موافقة على ما ستفعله شركتك الإنترناشيونال، أي خدمة أخرى؟».

قال:

«تأ..».

«أأ..».

«مأ..».

صار مخ المندوب لينًا كالعجين، وفَقَدَ القدرة على اختيار الكلمات، هز القلم بين إصبعيه:

«ليت الأمر بهذه السهولة يا هانم».

«ولماذا تُصعِّبون الحياة على البشر يا نور عيني، لاحِظ أنني امرأة فقدتْ زوجها حديثًا، الإنسان الوحيد الذي كان يتكلم معي، ولم يعد لديَّ صبر على التحدث طويلًا في شؤون لا أستوعبها».

نكَّس رأسه مرة أخرى:

«ربنا يصبِّرك يا مدام، مؤكد كلنا سنرحل في يوم من الأيام، لكن يجب أن توقعي الآن على هذه الأوراق».

أشعل سيجارة، حَرِصَ على ألا ينفخ الدخان في وجهها كنوع من احترام العملاء، لفَّ عنقه فطارت السُّحب البيضاء من فمه باتجاه المنور:

«ورقتان فقط».

مد يده مرة أخرى وقال بنبرة متوسلة:

توقيعات العقود الخاصة بعمارتكم، المسألة سهلة، سهلة جدًّا والله».

حاولتْ ألا تظهر أمامه كالمسنين الذين تفوح منهم روائح الفورتيموكس والسيدوفاج، أبدتْ نباهة واضحة في كلامها واستعادت حيوية ذراعيها أثناء التعبير، نظرت إلى أسنانه المصفرَّة وقالت:

«كيف تكون صغيرًا إلى هذا الحد ومدخنًا؟».

«كل المدخنين يبدأون التدخين صغارًا يا مدام».

أسعفه لسانه بهذه الكلمات وهو يحاول أن يبحث عن إجابة تُرضيها، لم يتوقع منها هذا الكلام، على الأقل الآن، كل ما فعله أنه رفع ذراعه وهمَّ بأن يلمس أسنانه بأصابعه، لكنه تراجع وقال:

«إن شاء الله أبطلها قريب».

لم تعتبرها السيدة إجابة، فأكملتْ:

«أنا أكره التدخين والدخان وكل ما له علاقة بالسجائر، هذه البزازة الملعونة تسلب الحياة من الناس بسهولة، شفط، نفخ، شفط، نفخ، يا أخي عيب على طولك».

شدَّ المندوب الشاب صدره، كأنه يقيس طوله بالفعل، ولم يرد.

«هل تعرف كم مليونًا يموتون كل سنة بسبب التدخين يا حضرة، هل تريد أن تموت؟».

شفط آخر نَفَس، أحرقتْ جمرة النار الصغيرة جزءًا من الفلتر، دهس العُقب تحت حذائه:

«أنا أقدر نصائحك الغالية، لكن لي عم في الخامسة والثمانين وما زال يدخن، منذ سبعين عامًا يدخن علبتين في اليوم، وصحته بُمب، من فضلك، أريد منكِ أن توقعي على الاستمارة لأنهي عملي».

لم تنظر السيدة نادية إلى الاستمارة التي يحملها كالذنب تحت إبطه:

«شكلك غلبان ولم تنم منذ يومين على الأقل، يبان هذا من عينك الحمراء وظهرك المنحني».

فرك عينه بسبابته، ثم ضرب قبضته في منتصف ظهره، كأنه يقوِّمهُ:

«أنا في الثامنة والعشرين ومشكلة عمودي الفقري بسبب الوقفة الطويلة أمام العملاء، كل ما أريده منكِ أن توقعي لي، مجرد توقيع بسيط».

ابتسمتْ السيدة وهزتْ رأسها:

«وما المشكلة في أن تعملوا إعلاناتكم كما تريدون وتتركوني لحالي؟ فأنا أنتظر موظف شركة التأمين، سيدفع لي قيمة بوليصة التأمين الخاصة بزوجي الذي مات منذ ثلاثة أشهر».

ابتسم المندوب حتى بانت أسنانه الصفراء وقال:

«على فكرة يا مدام، نحن أيضًا سندفع لكِ».

«نحن، من تكونون أنتم، ولماذا ستدفعون لي؟».

اتخذتْ ملامح المندوب التقلصات اللازمة لمسؤول شاطر في شركة إعلانات، نسي أن يُخني ظهره ليستعطفها، فقال بطريقة مسرحية ونبرة تصلح أكثر للبرامج الإذاعية:

«يا هانم نحن أكبر شركة للدعاية والإعلان في الشرق الأوسط، شركة مالتي...».

قاطعتْه مرة أخرى:

«إنترناشيونال للدعاية والإعلان، حفظتها والله».

«برافو يا أفندم، يبقى فقط أن توقعي على الأوراق لتستلمي الشيك».

«لا يمكن أن تعطلني بهذا الشكل من أجل مبلغ تافه، بِكَم يكون شيككم هذا؟».

قرَّب المندوب الشيك من عينها لتتمكن من قراءته:

«لم أصرف طوال عمري أي شيكات ولا أعرف ماذا تعني الرموز المكتوبة على هذه الورقة، بوليصة التأمين هي أول شيء يُصرف ألمسه في حياتي، كم قيمة شيك شركتك هذا؟».

«ثلاثة آلاف جنيه».

«ثلاثة آلاف جنيه، هل أنت متأكد من الرقم؟».

«عيب يا مدام، هذه شُغلتي منذ خمس سنوات».

«وهل تقاضَىَ جميع السكان مثل هذا الشيك؟».

«نعم».

«ولماذا تنفقون كل هذه الأموال وكان بإمكانكم أن تتفقوا مع صاحب العمارة وحده دون اللجوء للسكان؟».

«لقد اتفقنا يا أفندم مع صاحب العمارة وتقاضى ضعف هذا المبلغ، ولكن لأننا شركة محترفة في الدعاية لا نريد مشكلات من أحد، فلا بد أن نحصل على موافقة جميع الأطراف قبل اتخاذ أي إجراء عملي».

«وهل يمكن للسكان أن يعترضوا أصلًا؟».

«يا هانم، لقد رفع أحد السكان قضية على الشركة منذ عامين وحكمت له المحكمة بربع مليون جنيه كتعويض لأننا لم نستأذنه قبل أن نرسم حول شِباكه إعلانًا عن مسحوق غسيل، وحتى بعد أن تقاضى هذا المبلغ الكبير، جاء بنقَّاش على حسابه ودهن الدور الخاص به باللون الأبيض، فألغى نصف رأس السيدة التي كانت تحمل المسحوق، عندما شُوِّه الإعلان قاضتْنا شركة المنظفات هي الأخرى وطلبتْ ربع مليون آخر، فتعلمنا الدرس جيدًا، وقررت شركتنا أن تتفق مع السكان وصاحب العمارة قبل تنفيذ أي إعلانات في المستقبل».

بدأت السيدة نادية تنتبه جيدًا بعد أن أقنعها الرجل بتفسيراته ودوافع شركته:

«طيب ثانية واحدة أجيب القلم والنظارة».

عاجلها المندوب بكلمات متدفقة وسريعة كأنه استراح من عناء طويل، انشرح صوته وارتجل على الفور :

«ممكن حضرتك تجيبي النظارة فقط، القلم جاهز».

عندما راجع كلامه عاتب نفسه، فما كان له أن يخبرها بمسألة القضية وربع المليون جنيه، حمد الله لأن أحدًا من إدارة الشركة لم يسمع مثل هذه الكلام.

مدت السيدة نادية يدها والتقطت نظارتها الطبية المركونة فوق شوفونيرة قريبة من الباب، عند عودتها كان قلم المندوب ممدودًا بأدب جم، وملامحه تستدعي ابتسامة وظيفية مُرهَقة، أمسكتْ بالقلم وتأملتْ الأوراق في الدوسيه الأزرق، سألته وهي تبحث عن خانة التوقيع:

«وعماذا سيكون إعلان شركتكم، مسحوق غسيل أيضًا؟».

قال الرجل وقد بدأت الحيوية تدب في حركته:

«لا، إنه إعلان سجائر، أكبر إعلان على الطريق لشركة الدخان».

توقفتْ يد السيدة نادية بالقلم، خلعت عن وجهها النظارة، أخذتْ تلوح بها في وجهه:

«شركة الدخان؟ هذه الشركة هي التي مات زوجي بسبب منتجاتها، للأسف، لا يمكنني التوقيع على أوراقك، أعتذر لطول وقفتك وانتظارك، لا أوافق أبدًا على أن أنظر من الشُّباك فأرى إعلانًا لشركة دخان».

عاد المندوب لسيرته الأولى، متوتر، يبحث عن مَخرج ملائم لطبيعة وظيفته:

«هذا مجرد إعلان يا مدام، وهل سيجبرك أحد على تدخين السجائر الملصوقة على الحائط، هي فقط رسمة ملونة، لا أكثر ولا أقل».

«أغنيها لك من أجل أن تفهم، أقول لك فقدتُ زوجي يا بني آدم».

وقف المندوب يبحلق فيها، يتأمل السيدة التي جعلها نمط حياتها غريبة الأطوار، تلجلج الكلام فوق لسانه وهو يحاول إقناعها:

«يا مدام، هذه أقدار، والله أقدار».

قفزت في رأسه فكرة أخرى اعتبرها انتصارًا:

«ثم أنني أريد أن أطمئنكِ، فلو كان نظرك ستة على ستة ونظرتِ من الشباك لا يمكنكِ أبدًا أن تري هذا الإعلان، يمكن أن نعمل لكِ إعلانًا فوق واجهة العمارة المقابلة عن شركة شوكولاتة».

تناولتْ السيدة نادية منه الورقة التي يتأملها كلما نظر في دفتره، قرَّبتْها من عينها وقالت:

«نفس نوع السجائر يا حبيبي، هي نفسها، شركة الدخان، الشركة التي ترمَّلتُ بسبب منتجاتها، لكن المسؤولين كثر الله خيرهم، أرسلوا لي موظفًا الآن يخبرني بأنهم، وإمعانًا في ذُلِّي، سيلصقون إعلانًا عن منتجاتهم فوق شباكي لأنه مُطل على شارع كبير، إعلان دخان، الحياة كلها أصبحت دخانًا».

بقبق المندوب ومط شفته السفلى كأن فمه محشو بمعجون أسنان، بدأ يلوم نفسه على أنه يتكبد كل هذا العناء لتبييض وجه شركته،

ليقنع الناس بأن الإعلانات شيء رائع وجميل، لم يتعد لومه لنفسه مساحة الندم المؤقت وهو يكلم السيدة نادية، كأي إنسان تتضارب مصالحه مع قناعاته، قال لنفسه قبل أن يبقبق مرة أخرى، طبيعي أن يخدم الإنسان أكل عيشه، ومن المنطقي أن يسبب الإخفاق أو الفشل لومًا مؤقتًا، وأن يسبب النجاح وإصابة الهدف انتعاشة وفخرًا.

قبل أن يعود إلى اتزانه وتأخذ ملامحه طابع الموظف الواثق من نفسه قالت السيدة نادية:

«وما علاقتك بشركة الدخان؟».

قال المندوب وهو يطرقع عنقه يمينًا ويسارًا:

«أنا أعمل مندوبًا بعقد مؤقت في شركة الإعلانات، ولو أحسنتُ عملي سيعينونني في الشركة بعقد ثابت ويزيد مُرتبي، أما شركة الدخان فلا أعرف عنها شيئًا».

أحس بأن ما قاله يمكن أن ينتقص من وقاره، فأخذ يتظاهر بأنه منشغل في فرز نماذج الأوراق، كانت مجرد نسخ مُصورة تصلح لجميع الناس، تطير أمامه وهو يفرِّها بعجل.

أثناء التصفح انطلقتْ إشارات تحذيرية متصاعدة من جسده المُتعب إلى مخه لتنبئه بحجم الألم، كان يخشى أن يفقد وعيه قبل أن توقع له الساكنة الأخيرة في الخانة المطلوبة.

تناولتْ السيدة نادية شريط برشام من فوق الشوفونيرة، بلعت واحدة وأخذت تشهق وهي تجاهد كي تعبر الحبة زورها، أثناء انشغالها ببلع البرشامة تأمل المندوب شقتها، من فوق رأسها، تكاد

تخلو من الأثاث، في الواجهة صندوق خشبي به بعض الأكواب الزجاجية، وعن يمينه كنبة أنتريه تسد الطرقة، وفي البلكون يهز الهواء كرسي بامبو من ذلك النوع المخصص للاسترخاء.

أثناء صمته تخيَّل المندوب نفسه مكانها، ثلاثة آلاف جنيه في اليد ولا مئة في بوليصة التأمين، يفكر بظروفه هو، يحكم بما يراه أمامه الآن، فهو بالطبع لا يعرف من تكون هذه السيدة المنكمشة من الحزن في جلابية قصيرة بشكل ملحوظ، لا يعرف أن أباها كان آخر المساهمين في شركة «المحاريث والتجارة الهندسية» ظل يدافع عن شركته في مواجهة الشركات الكبيرة التي غزت الأسواق المصرية في نهاية السبعينيات، خسر كل الحروب التي خاضها لتبقى شركته كبيرة، تقلصت الفرصة عندما حوَّل كل شركائه أموالهم إلى شركات ناشئة في دول بعيدة، في أوروبا الشرقية واليابان، ومؤخرًا تلك التي أطلقوا عليها «النمور الآسيوية»، وبعد صراعات تجارية دامت عشر سنوات، لم يبق له من خمسة عشر فرعًا إلا محل صغير بشارع عماد الدين، فعندما لم ينافس الآخرين انتزعوا منه سلطته التجارية، لم يتصارعوا معه بلُغة التجارة القديمة ولكنهم صرعوه وهم يساومونه، رفض أن يعمل وسيطًا مقابل عمولة، فهو جزء من السوق وليس سمسارًا، كتم في نفسه مشاعر سقوط شركته الموجع، منذ تأسيسها على يد جده وحتى انهيارها على يده، عندما اكتفى بما لديه سبقه الجميع، من لم يُصارع يموت، حكمة استوعبها متأخرًا، متأخرًا جدًّا. ليالٍ طويلة وهو يفتعل النوم، يُغمض عينه تحت الغطاء لكن الراحة أبدًا لا تجيء، أرق منبعه الرفض، رفض ما آلت إليه

الأمور، لماذا يجب عليه الركض في الوقت الذي يريد فيه أن يمشي، حاول أن ينساق وراء خدعة «تعظيم التجارة» للسيطرة على السوق كما يفعل المتنافسون، لكن أوان تصليح الكوب المكسور كان قد فات، فقد ابتلعتْ الكيانات الكبيرة جميع الشركات الأصغر كما تفعل المكنسة الكهربائية مع الأتربة، ظلت الكيانات تكبر حتى تجاوزتْ أصحابها، أصبحت أكبر من الحِكم والمذاهب والتاريخ، وأكبر من الدول نفسها، لم يعد أبوها يعرف، هل الدول هي التي تحتوي الكيانات، أم الكيانات هي التي تسعى لابتلاع الدول! يستيقظ من اللا نوم ويفكر. مرت شهور وهو على هذه الحال، اختفى اللطف عن تصرفاته وغابت الرقة عن كلامه، أصبح فظًّا وهو الذي كان يكتب الشعر في شبابه ويرسله إلى الصحف والمجلات.

مع الوقت اختفت التفاصيل الفنية التي كانت تُميز شركة المحاريث والتجارة الهندسية، اكتب عندك في كشف الاستيراد، مخالب آلات الحصاد من الحديد الألماني، ومواتير الجرارات من إيطاليا، ودهانات طلمبات رفع المياه ثلاث طبقات وطبقة تلميع، مع مرور الأيام لم يعد كشف الاستيراد له قيمة تجارية تُذكر، فقد غَزَتْ الأسواق منتجات متطابقة في المواصفات، نموذج ثابت، اسطمبة بنصف السعر تقريبًا، لم يعد الأمر مقتصرًا على الجرارات والطلمبات كما في سالف الأيام، لم يعد يعرف حدودًا لفضاء السوق العالمي، تلك المساحة التي تستوعب البيع والشراء والوساطات، أصبحتْ الشركات الصاعدة تورِّد خلال أقل من أسبوع كل ما يمكن أن يحتاج إليه المزارع، بضاعتهم دائمًا جاهزة وتصل إلى أي مكان في

العالم بمجرد فاكس، تنوعت المنتجات أشكالًا وألوانًا؛ محشَّة، عزَّاقة، حلَّابة، عربات حصاد هيدروليكية، أوناشًا وماكينات ري.

الشركات ليست شاعرية، والسوق لم يعد يتحمل أحلام تجار رومانسيين.

كان يزين فرع الشركة الوحيد تمثال نصفي لجمال عبد الناصر، صنعه والده في زمن الأحلام الكبيرة، جال بخاطره أن يمنحه لأول بائع روبابيكيا يمر، لكن أفكاره القديمة غلبت أفكاره الدخيلة ولم يستطع التخلص منه، لكنه شوهِدَ ذات صباح وهو يقف بجوار التمثال صامتًا دون حراك، وقد كان يحمل في يده مفكًّا.

في أواخر عهد أبيها كسدتْ تجارة آلات المحاريث الحديدية تمامًا، فتاجر في العدد اليدوية ومواتير المياه، وعندما رأت نادية ما فعلته المضاربات والخوف من الفقر على صحة أبيها ابتعدت، تركت كل شيء بعد أن شاهدت أباها جالسًا على الكرسي أمام المحل الذي كان شركة كبيرة ذات يوم، تُكلمه فلا يرد، نام، أو اعتقدتْ أنه نام، نقلوه بهدوء إلى أقرب مسجد، كان يابسًا ومتجمدًا مثل التمثال النصفي الذي يزين واجهة فرع الشركة الوحيد بشارع عماد الدين، بعد ساعتين لا أكثر قالوا لها أنهم صلوا عليه، باع عمها المحل ووضع لها نصيبها في البنك، اقتطعتْ منه مبلغًا لشراء شقة بعيدة، في المسافة والارتفاع، وكانت من السكان الأوائل الذين عمَّروا شارع الصفوة، قبل أن يكون هناك شيء اسمه الطريق الدائري، أحبتْ موظفًا صغيرًا كان آخر من عمل لدى أبيها، استمر في عمله رغم الربح المحدود للمحل، تعلقت به عندما كانت تذهب لمراجعة الإيراد كل أول شهر،

تزوجته وبدأتْ معه حياة جديدة، بعد أن تلاشت شركة المحاريث والتجارة الهندسية عمل زوجها ورديتين للحفاظ على مستوى المعيشة، صباحًا موظفًا في شركة محدودة لتوريد إطارات السيارات، ومساءً يمسك حسابات مطعم في مدينة نصر، كان يدخل البيت كالضيف، سواد الليل فقط، في يده سيجارة وهو داخل وسيجارة وهو خارج، كانت يده اليمنى دائما بستة أصابع، حتى في السرير، كانت نادية تُغيِّر الملاءات والأغطية بسبب ثقوب زهرة السيجارة، حدثته عن صحته فلم يهتم، عن نقوده فلم يهتم، لم تحدثه عن استنشاقها للدخان، فمؤكد أنه لن يهتم أيضًا. أمام عمارتها المطلة على الطريق الجديد تمدد الدائري ولم تتمدد أسرتها، لم يخرج من بطنها أي طفل، ظلَّا كما هما، فردين فقط لمدة ثلاثين عامًا، أنجبتْ جدتها ثمانية، وأمها أربعة، وهي لا أحد، ثمانية، أربعة، لا أحد، كأن العالم يتجه نحو الفراغ، كأنه صار دخانًا مثل نفثات سجائر المدخنين، لم يتحول ماء زوجها إلى نُسخ بشرية، ظلتْ نادية طوال حياتها حريصة على النظر من شباكها، في الصباحات البعيدة كانت تتابع شق الطريق بالحديد والخرسانة منذ بدايته، تحول الشارع المنزرع بالنخيل إلى شريط متعرج من الأسفلت، كانت تتابع تطور الإنشاءات الجديدة وهي جالسة فوق كرسي البامبو الهزاز منذ الغروب وحتى يُظلم الطريق، تتأمل إضاءات كشافات السيارات المُسرعة وهي تمرق كالشُهب.

الذكريات لا قيمة لها في ذاتها، تكتسب قيمتها فقط بمرور الزمن، لم تعد في الحياة محاريث، تبدَّل كل شيء وتغير، قالت لنفسها وهي تشعر بدوار خفيف.

سرعان ما شرد كل منهما في ما يشبه الحلم، السيدة نادية استقرتْ تمامًا فوق حِجر أبيها في محل شارع عماد الدين، تجمدتْ ذاكرتها البعيدة عند مشهد واحد، عندما حملوا أباها من فوق الكرسي ووضعوه في ساحة المسجد، منذ ذلك اليوم قررت بأنها لن تندم على شيء مثلما فعل أبوها، تذكرت الأمنيات التي كانت تحلم بها ولم تحققها، استعارتْ كتبًا من المكتبة العامة، ذهبتْ إلى السينما، ضحكت مرة على فيلم كوميدي، وألقت بكتاب سخيف من البلكون، محاولات استعادة اتزانها لم تصمد طويلًا، بعد أيام قليلة عادت إلى أحزانها وذكرياتها، ثم قالت لنفسها «ببعض الصبر والتعايش يمكن أن أصل إلى التسعين مرتاحة، بلا أمراض، فصحتي جيدة ولا أدخن»، لكنها بعد وحدة دامت ثلاثة أشهر فقط انكمش عالمها إلى شقتها في الدور الحادي عشر، ونظرة مسائية على السيارات المسرعة كالزمن، تضيء شمعة عطرية كبيرة وتجلس أمامها تتأمل تهدُّل المادة الدهنية حول اللهب.

سرح المندوب في الروائح المنبعثة من الشقة، مزيج عطور قديمة وعرق ومطهرات تنظيف، كان يحلم بشيء آخر مرتبطًا بظروفه، يحلم بتعيينه بعد شغل خمس سنوات بعقد مؤقت، «سأطلب نقلي إلى قسم التصميمات الفنية»، قال لنفسه، «فأنا لم أتخرج في قسم المونتاج بمعهد السينما كي أتفاوض مع سكان العمارات وأتحمل سخافاتهم ومشكلاتهم النفسية، أغلبهم مقرفون، يعاملونني كمستخدم لديهم، في قسم التصميمات سيصبح العمل أقل والدخل أكبر، مخي هو الذي سيعمل لا يدي، لكن كي أفاتح رئيس مجلس الإدارة في طلب مثل هذا يجب عليَّ أولًا أن أتقدم بـ *CV* محترم حتى يقبل نقلي، على الأقل

بعد الانتهاء من إتمام صفقة هذه العمارة، فبهذا الإعلان ستتم المرحلة الأولى التي نُفذتْ كلها، خمسة وعشرون إعلانًا، من نزلة المرج وحتى تفريعة قليوب، قمتُ بتنفيذها وحدي، سأبرم عقد هذه العمارة اليوم حتى ينبسط رئيس مجلس الإدارة مني، فهو مؤكد لديه فكرة عن تجولي بسيارتي الهاتشباك الصغيرة في مشاوير تبدأ لكنها لا تنتهي، أدرس الطريق جيدًا، للتأكد من أن الجدار الذي اخترتُ مخاطبة سكانه هو مكان مناسب للشركة، وأن الواجهة مثالية والإعلان سيُرى واضحًا من فوق سطح القمر، لا بد أن أعمل بكل ما في وسعي، الإعلانات الإلكترونية بدأت تلتهم الطريق، شاشات فوق المباني يعلقونها فقط، هذا كل ما في الأمر، ولو اعتمدت الشركة مثل هذه الحساسات الكهربية بديلًا عن الرسم سأبقى في القسم التنفيذي إلى يوم الدين، فلا حاجة لهم في ذلك الوقت إلى مصممي رسومات تخرجوا في قسم المونتاج بمعهد السينما، وسيكون المطلوبون للعمل هم فقط خريجو أقسام الكمبيوتر والجرافيك».

عندما تمكنتْ منه حاسته الوظيفية قفزت جملة سريعة إلى ذهنه:

«يا مدام، نحن سنعتني بعمارتكم، أعدكِ، سنرسم على الواجهة لوحة فنية تفيض بالجمال».

فقالت وهي تُعيد شريط البرشام إلى الشوفونيرة مرة أخرى:

«لن يُرسم على شِباكي أي إعلان لشركة الدخان، ولو أنكم رسمتم علبة سجائر رغمًا عني فسوف أرفع قضية على شركتكم».

شد المندوب صدره، نسي تمامًا أن يُظهر انحناءة عموده الفقري، قال بنبرة تليق أكثر بمحامٍ:

«إن كنتِ تعتقدين أن الشركة ستصرف لكِ ربع مليون جنيه مثل الساكن الذي رفض إعلان مسحوق الغسيل فأحب أن أقول لحضرتك شيئًا، أن هناك بندًا في عقد الشركة يفيد بالآتي».

فتح دوسيهه المليء بالورق وفرَّ فيه قليلًا:

«لا يجوز للساكن مقاضاة الشركة بعد أن يوقِّع مالك العمارة ويسمح بتنفيذ الإعلان فعليًّا».

«نحن مُلاك ولسنا سكانًا».

«حتى ولو».

قالت بنبرة واثقة:

«ابن أختي محامٍ وسيكسب القضية من الشركة».

كان يعلم بأنها تكذب، فنظر إليها وهو يحاول إقناعها من جديد:

«في هذه الحالة فإن البند الثالث من العقد الخاص بصاحب العقار ينص على تحمله هو المسؤولية».

ابتسمت السيدة نادية بجانب واحد من فمها وقالت:

«هه، سأجعل ابن أختي يرفع قضيتين، واحدة على شركتكم والأخرى على صاحب العمارة».

«يا مدام، عصفور في اليد».

«سيصرفون لي قيمة البوليصة ولن أحتاج لقروشكم».

حك الرجل عنقه وأمسك بتفاحة آدم أثناء بلع ريقه:

«خلاص، تخيلي أن قيمة البوليصة مُضاف إليها ثلاثة آلاف جنيه زيادة».

«أنت مجرد موظف، وليس من سلطتك أن تقول لي اقبلي شيئًا أو ارفضيه».

في هذه اللحظة بالذات كان مخ المندوب يزدحم بالأفكار ويموج بتصورات متنوعة المصادر، أخذ يبدل قدميه ببطء، كأنه يشق طريقه في برميل غراء:

«والله لو كنت مكانك لوقَّعتُ على المستند دون تردد».

«أوقع لأوافق على إعلان شركة الدخان، هه، كيف تقول ذلك وشركة الدخان هذه هي التي تماطل في إصدار أي قانون يحفظ حقوق من ماتوا بسبب التدخين؟ قلت لك مئة مرة، لن يُرسم إعلانكم أبدًا تحت شِباكي، فشركتك ليس لها قلب، جميع الشركات ليس لها قلب».

رتب المندوب أوراقه في الدوسيه، واستعد لأن ينهي معها المقابلة:

«لا توجد شركات لديها قلب، الشركات لديها حسابات فقط، ربح وخسارة، وكل ما يمكنني فعله هو أن أعرض عليكِ الأمر، بعد ذلك يمكنكِ الاختيار، فلا أنا صاحب الشركة ولا أنا مديرها، لا أستطيع حتى التحكم في نوع أو مواعيد العمل، يا مدام، أنا بالفعل مجرد موظف، ولكنني أشعر وأحس، أريدُ أن أكسب، فهذا هو الطريق الوحيد الذي سيمكنني من الزواج وتكوين أسرة، أنا لا أعمل في شركة الدخان، ولا حتى أعمل بعقد ثابت في شركة الإعلانات، أنا مجرد فني أشتغل بعقد مؤقت، ووجودي معكِ الآن أيضًا مؤقت».

أثَّرت فيها كلمات المندوب عندما التمعتْ عينه وتقلصت ملامحه مع انفعال الكلام، فدعته السيدة نادية ليتناول كوب شاي بسبب طول الوقفة وليس بسبب موافقتها على اقتراحه.

دخل المندوب مطأطئ الرأس، يختلس نظرات سريعة لمحتويات الشقة، جلس على كرسي البامبو الهزاز في البلكون، تركته السيدة ودخلت المطبخ، أطل برأسه من البلكون يتابع أعمال الدهان التي ينفذها رجاله، كانوا قد أوشكوا على طلاء جزء طولي من الواجهة، الذي هو حصتهم من شغل اليوم، نظر إليهم من أعلى كطائر متفوق على الجميع، يرى كل شيء من تحته صغيرًا وتافهًا، تخيل الرسمة التي عاينها بالأمس في القسم الفني وهي مسدولة بطول العمارة، سيدة ترتدي فستانًا أحمر وقبعة زرقاء، هو الذي أشار لمسؤول القسم الفني باختيار تلك الألوان، الأحمر والأزرق يلفتان الانتباه من أبعد مسافة، فقبل أن يتخصص في المونتاج درس الألوان والإضاءة بمعهد السينما، في شركة الإعلانات يأخذون بآرائه الفنية ويعلنون أنها آراؤهم هم، سيتعدل كل شيء عندما ينتقل إلى قسم التصميم الفني ويترك القسم التنفيذي للأبد، ذلك القسم الذي يسمونه «الفاعل» لأنه لا يتناسب مع مواهبه، فهُم يحتاجون فيه «مرمطونًا» وليس فنانًا.

نظر المندوب حواليه فلم يجد السيدة، كانت لا تزال في المطبخ، فعاد يسترق النظر من البلكون، بقايا النخل على امتداد البصر لها جمال الطبيعة، والغبار يدفن مجرى ترعة قريبة بسبب الإنشاءات المستمرة، عاد يتخيل رسمة السيدة صاحبة الفستان والقبعة، قسَّم الجدار كما تعلَّم إلى ثمانية أجزاء، كل مربع منها سيُرسم فوقه جزء من الإعلان،

سرح في هذا التصور حتى وصلتْ الرسمة في رأسه إلى الشرفة التي يقف فيها، تخيَّل أن الدور الأخير سيحتوي القبعة كاملة، وراح يستعيد عناد السيدة نادية والتمسك برفضها، فسرح وقال لنفسه، إذا صممتْ الساكنة على رأيها فستكون السيدة المرسومة في الإعلان بلا قبعة.

كان قد اقترح على القسم الفني رسمة أخرى لكنهم لم يوافقوا عليها، رأى المندوب أنها أفضل بكثير من تلك المرأة التقليدية صاحبة القبعة الزرقاء، والتي لن تلفت نظر الكثيرين، لأن ملامحها أجنبية بشكل ملحوظ، كما أننا في بلادنا لا نرتدي القبعات أصلًا، اعتمدتْ فكرته البديلة على تصورات اكتسبها من دراسته للمونتاج السينمائي، فاقترح على رئيس القسم التنفيذي هذه الرسمة المبتكرة، بنت صغيرة تقف على باب سينما وتحمل صندوقًا به سجائر شركة الدخان المُراد الإعلان عن منتجاتها، تعرض سجائرها على شاب أنيق يخرج من السينما، فتكتشف أنه يدخن واحدة من النوع نفسه، البنت تضحك والرجل يبتسم، آه لو وافق عليها القسم الفني، صورة مبهجة ومناسبة للذوق المصري.

خرجت السيدة نادية وهي تحمل في يدها صينية عليها كيك وشاي وبعض المقرمشات:

«كُل، أنت واقف من بدري، زمانك جُعت».

حطت ما في يدها وألقت نظرة بالخارج، السقالة المنصوبة بانت أكثر، العاملان مندمجان في تبييض الواجهة، وبدأتْ تستنشق رائحة البوية.

استغرب المندوب من معاملة السيدة التي لا تعرفه، والتي ترفض عرضه من الأساس، شكرها وبدأ يلتهم محتويات الصينية، فقد جاع بالفعل ولم يتذكر هل أكل منذ أن خرج من بيته أم لا، لم ينتبه لجوعه إلا بعد أن رأى بقايا المخبوزات تقع على ملابسه، مدت السيدة يدها إلى السكر، قال لها:

«أشرب الشاي بلا سكر، تعليمات الطبيب، أصيبتُ بالسكري منذ سنتين».

ثم سألها:

«هل اقتنعتِ برأيي؟».

«لا».

قالت فتوقفت يده بكوب الشاي:

«لماذا؟».

ابتسمتْ:

«لقد أضعت من وقتي الكثير وأنت تحاول إقناعي بقناعتك أنت، كان يمكن أن أستغل هذا الوقت في تنظيف دجاجة وسلْقها».

وجم المندوب، فأكملت السيدة نادية:

«يا حضرة، لقد دعوتك فقط لتستريح، فأنا أعرف أن الوقفة الطويلة تحطم العمود الفقري، وليس معنى ذلك أنني أوافق على الإعلان، أعرف أنه يمكنكم كشركة كبيرة، أكبر مني، ومن أي إنسان بالطبع، أن تنفذوا الإعلان دون أن تنشغلوا برأيي».

رفع كوب الشاي عن شفتيه ومد رأسه للأمام كجمل، كأنه قبض على فكرة خطيرة:

«هذا بالضبط هو ما كنتُ أود إيضاحه لحضرتك، الإعلان سيتم تنفيذه في جميع الحالات، فالمادة رقم...».

قاطعتْه:

«لسنا في ساحة محكمة، وأنا لا أفهم في مواد القانون، هل ترى شباكي هذا؟».

رغم أن الشباك أمامه بالفعل فقد نظر المندوب كالتائه وهو يبحث عنه:

«آه آه، أراه بالطبع».

«ثلاثة دلاء من البوية أدلقها منه كفيلة بإفساد إعلانكم يا نور عيني، هل فهمت؟ الموضوع في منتهى البساطة، وأود أن أوضح لك أنه في جميع الحالات، حتى لو نفذتم إعلان شركة الدخان سأقول لنفسي يكفي أنني رفضتُ، وبعدها، سأنام نومًا عميقًا، عندما تصبح في مثل سني ستفهم ما أقوله لك، ستتغير جميع حساباتك، صدقني».

ارتبك المندوب وتاهت منه الكلمات مرة أخرى:

«أنا..».

مدت السيدة نادية يدها إليه بقطعة كيك:

«أنت معذور، أعرف ذلك والله، اشرب شايك وسألفُ لك قطعتي الكيك المتبقيتين في كيس، أعطهما للمسكينين اللذين يركبان الطاولة بالأسفل، فالشمس تضرب في قفاهما منذ ما يزيد على ست

ساعات، ومؤكد أيضًا ضربهما الجوع والعطش وشردتْ بهما هموم الحياة».

قام المندوب وهو ينفض ما تبقى من قطع الكيك:

«طيب وبالنسبة للتوقيع؟».

قامت لَمَّا قام وقالت:

«بُص، هذه الإعلانات ليست شيئًا حقيقيًّا، وكذلك الصورة التي سترسمونها أيضًا، لا تسد حاجة ملموسة عند الناس، فبضاعة شركة الدخان لا تحتاج إلى الزبائن أنفسهم في شيء، ولكنها تحتاج إلى نقودهم فقط، وهي شركة ككل الشركات، تحتاج لأن يدور المكن ليل نهار، هذا كل ما في الأمر».

تنحنح وشد شفته السفلى بإصبعيه أكثر من مرة وهو سارح، عندما تنبَّه لتلك الحركة التافهة عاد يستدعي ملامح الجدية:

«لكن الشركات مؤسسات كبيرة، أكبر من أي إنسان، حتى ولو رفضنا كل القرارات الصادرة عنها».

فردت وهي تسبقه بخطوة إلى باب الشقة:

«أعرف ذلك، لكن مجرد رفضي سيريحني، حتى ولو سيكون بلا نتيجة».

تأكد المندوب أن أوراقه في يده أولًا ثم قال:

«شركة الدخان مجرد شركة يريد أصحابها أن يكسبوا، هي ليست سيئة إلى هذا الحد».

ابتسمتْ السيدة نادية ابتسامة مطمئنة:

«تذكرني بنفسي وأنا في مثل سِنك، كنتُ أحب الحياة بلا شروط ولا أحسب لشيء، أعرف أنه من الصعب أن تقتنع بكلماتي، فلو أنصت إليَّ زوجي لكان هو الذي يجلس معي الآن بدلًا منك».

نظرتْ إليه نظرة عطوفًا وأكملتْ:

«القناعات تتراكم وتتوزع على امتداد العُمر، لا يمكن أن تُدرك كلها لشخص في مثل عمرك».

هذه الجملة تحديدًا لم يفهمها المندوب، كل ما كان يشغله أن توافق السيدة على توقيع عقد الإعلان، فقال وقناعاته غير واضحة في رأسه:

«المؤسسات تفكر في مصالحها، ويجب على الأفراد أيضًا أن يفكروا في مصالحهم».

في تلك اللحظة بالذات، أرادت السيدة نادية ألا تكرر أمامه كلمة «مات زوجي» ترى أن لفظة «مات» تشير إلى ضعفها بشكل ما، بدلتها بكلمة «فقدتُ زوجي» ومرة أخرى «منذ أن راح» أرادت أن تُحرِّف الكلمة وتخترع لها بدائل مختلفة، في آخر مرة قالت: «منذ أن غاب»، ارتاحت لها بشكل كبير.

قال الرجل لنفسه قبل أن يفتح فمه، أنا لستُ متسولًا، لا أربط عيني بضماد، لا أسير على عكاز أو يُعلق كُمي الخاوي فوق صدري، أنا موظف محترم، ولا بد أن تعرف تلك السيدة ذلك:

«أنا...».

«أنت موظف محترم، أعرف ذلك».

تعجَّب من أنها أكملت ما يدور في رأسه، فخشي أن يعاود الكلام مرة أخرى، اقترب من باب الشقة في طريقه إلى الخروج، كان يسترق النظر إليها وهو يلملم أوراقه، لم يرها بالصورة نفسها التي كانت عليها منذ ساعة، مجرد سيدة طيبة مات زوجها وأصبحتْ بمفردها، تدافع عن الشيء الوحيد الذي يعينها على تكملة الحياة، تشعر بأنها صاحبة حق بشكل ما، وأصبح هو بإلحاحه كالسياسي الذي يبحث عن منصب، يحاول أن يظفر بأي انتصار ولو سيفقد ماء وجهه.

تحولتْ أفكار المندوب كلها إلى سُحب، دخان، تتبدل وتتغير، وهو نفسه يتبدل ويتغير ويتفسخ، حتى إذا مر عليه وقت أطول من ذلك، سيتبدد ويصبح أثرًا.

عاد يشك في جدوى وظيفته، وهل يحتاج سكان العمارات إلى أشخاص من الخارج ليخبروهم بما يحتاجونه؟ الإعلان لن يُجمِّل العمارة، ربما شوهها، فسرعان ما تعتلي الواجهة الأغبرة ويُغطي السناج كل الألوان البراقة، سيحيل المبنى إلى مسخ، لن تُرى هذه السيدة بعد الرسم وهي تنظر من شباكها، لن تُرى أبدًا، سيعتقد من يركب سيارته ويعبر الطريق الدائري أنها تفصيلة تابعة للإعلان، ظفر إصبع الموديلز التي ترشق السيجارة بين إصبعيها، أو أحمر الشفاه في فمها، أو جزء من ياقة بلوزتها، وربما صارت السيدة نادية فلتر سيجارة، أو جناح عصفورة مرسومة فوق القبعة الزرقاء، لن يظهر شباكها مرة أخرى بسبب صخب الألوان، حتى ولو خلعتْ الشيش للأبد، سيظهر للرائي من الطريق السريع كأنه ثقب في ثوب امرأة عملاقة تدخن، أو مجرد بثرة في خدها.

أفكار المندوب كانت مرتبطة بدراسته السينمائية أكثر من وظيفته، تعقدَّتْ قناعاته ولم يعد يعرف ما يريده بالضبط، هل يمكن لامرأة ضعيفة إلى هذا الحد إفساد صفقة كبيرة بهذا الحجم؟ لا يمكنه تخيل ذلك، لكن ما لا يمكن تخيله يقفز إلى مَلكة الخيال أسرع من تلك الأشياء المألوفة.

نفض المندوب غبار التعاطف مع السيدة نادية، حاول العودة إلى تقاليد موظف معتدل يسعى إلى ترقية نفسه ودفْع مستواه المادي إلى الأمام، خدمة أكل العيش واجبة، قال وهو لا يزال في طريقه إلى الخارج:

«على أي حال أشكرك يا مدام».

استوقفته السيدة نادية ومدت يدها بالكيك الذي تفتت في الكيس، تناوله منها:

«لا أريد أن أكسف يدك».

تبتسم، كان يريد أن يحظى، أن يحظى بماذا؟ بتوقيعها، ولكنها لن توقِّع، وما الذي سيترتب على عدم موافقتها؟ لن يُنقل المندوب من القسم التنفيذي إلى القسم الفني، ففكر في أنه حتى الأرزاق حظوظ تشبه المطر، لا يُعرف بالتحديد على رأس مَن سيسقط.

رفع رأسه عند مدخل الشقة فرأى بروازًا لشخص، يبدو من نظرته الحزينة أنه ميت، تجاوز المدخل إلى الخارج، لمح تمثالًا نصفيًّا لجمال عبد الناصر، كان التمثال قديمًا نمَّش الزمن وجهه بالثقوب، وعند عنقه طعنة طولية، أرجعها المندوب لكثرة انكفائه. تجاوزه

ولم يفكر في تقديم العرض إلى السيدة مرة أخرى، وقفتْ بجوار باب شقتها حتى ابتلعه المصعد، أخذه التابوت الكهربائي وانزلق، عادت السيدة نادية إلى البلكون، ظلتْ تتابع العاملين اللذين يدهنان الجدار فوق الطاولة المتحركة، لم تدخل إلا بعد أن طُويت الحبال، رأت المندوب وهو يناولهما كيس الكيك، عندما نظر لأعلى ليبحث عن وجهها الصغير في الجدار الكبير كانت قد انسحبتْ إلى الداخل استعدادًا لقعدة المساء، ضبطتْ كرسي البامبو باتجاه البراح، أضاءت شمعة عطرية جديدة برائحة الخوخ، عملتْ فنجان قهوة يبدد صداع ساعتين من الكلام، جلست تهتز فوق الكرسي وتميل بجسدها إلى الأمام والخلف، تتابع السيارات التي تمرق كالشُّهب وهي تعبر الطريق الدائري.

الجمال الخالص

«يا حياتي غير المروية
يا كل المباهج المهيبة والبريئة»

والت ويتمان - أبناء آدم

«والله هذا هو ما حدث».

قالها الرجل الجالس أمام طبيبه في غرفة مكتب خافتة الإضاءة، ألقى الطبيب بالقلم داخل الأجندة وطرقع أصابعه:

«لماذا تُقسم في نهاية كل فقرة تتذكرها؟».

«لأن من الطبيعي ألا يصدقني أحد».

عاد يمسك بالقلم مرة أخرى ويراجع ما دوَّنه في صفحات الأجندة:

«أنا طبيبك، ومن المفترض أن يكون سرك كله معي، لا تنس أنك، وبشكل ما، تتحدث إلى نفسك، تخيل معي أن هذه الحجرة خالية من أي إنسان غيرك، ها، تفضل، استرخِ وتكلم».

تمدد الرجل على أريكة جلدية، نصف جالس نصف نائم، اقترب منه الطبيب بكرسي له عجلات كالمخالب:

«لقد توقفنا عند الفتاة الصغيرة التي تظهر لك في فضاء الصالة كل ليلة، قلت لي أنها كانت في الرابعة عشرة، وقلت أنك أحببتها».

«أنا في الخامسة والخمسين، هل يمكنك استيعاب الفكرة، كلمة «أحببتها» التي قلتها الآن شعرتُ بها مثل لكمة ضربت كبدي، كانت البنت لا تزال في علم الغيب عندما بلغتُ أنا الأربعين، من الصعب تخيل ذلك، ألست معي في هذه النقطة؟».

«قلت لي ما اسمها؟».

«ريهام».

«آه، ريهام».

«من الذي أخبرك باسمها؟».

«لا أتذكر، ربما هي التي أخبرتني».

«تبادلك البنت الحب، أليس كذلك؟».

«ربما أحبتني مثل أبيها، أتذكَّر أنها كانت تقول لي يا عمو أو يا أونكل، شيئًا من هذا القبيل».

«أنت تعرف ما أقصده بالطبع، ولا بد أن تكون صريحًا معي، هل تنظر البنت إليك نظرات ذات مغزى، كأنها، بالطبع أنت تفهم قصدي، كأنها امرأة مثلًا».

«نعم تكاد تلتهمني بنظراتها رغم سنها الصغيرة».

«ولماذا لا تكون أنت السبب في تشجيعها على تلك النظرات؟».

«ربما».

«اسمع».

«نعم».

«أنا لا أفضل الإكثار من توجيه الأسئلة إليك، فنحن لسنا في جلسة تحقيق، تأكد أنني سأسمعك ولو ظللت تتحدث حتى الغد، لا تنتظر مني أي تعليق على ما تقوله، اعتبرني صديقًا، أو اعتبرني غير موجود، حتى هذا».

ضغط على زر جهاز مسجل صغير.

«لن أحتاج إليه».

عاد الطبيب بكرسيه إلى مكتبه البيضاوي كما كان، فتح أجندته عند صفحة معينة وأمسك بالقلم، ضغط على زر خفف إضاءة المكان بشكل عام، لم يعد ظاهرًا من المكان كله سوى الرجل فقط، وكأنه أصبح طائرًا في الفضاء بالأريكة الجلدية، ضبط الطبيب موجة الراديو على البرنامج الموسيقي، مع تسرب صوت موسيقى رحمانيوف اختفى كل شيء عن الغرفة، إلا صوت الرجل:

في واقع الأمر، لم أشعر بأن ما أفعله يوضع في خانة الخطأ، التقيتُ ريهام ذات صباح، جاءت تسأل عن عنوان أحد أقاربها أو جيرانها أو شيئًا قريبًا من ذلك، جلستْ البنت فوق أرجوحة وأخذتْ تُطيرها وتطير بها، تحولت الصالة إلى مكان آخر خلال ثوانٍ، كانت تلبس فستانًا قصيرًا ومن تحته جورب أبيض من ذلك النوع الذي يستخدمه الأطفال، تربط شعرها بفيونكة حمراء، حاولتُ أن أتخيل ابنتي مكانها لأردع نفسي وأخمد أفكاري لكنني فشلتُ، لا أقصد تخيلها من حيث الجمال الشكلي فقط، كانت ابنتي طفلة، وريهام فتاة ناضجة تنظر إليَّ كما تنظر النساء للرجال، رغم أنهما متماثلتان في العُمر، قلتُ في نفسي، عُد إلى صوابك واستغفر، اشكر الله لأن شيئًا أبعد من ذلك لم يقع بينكما ولم تحدث أي فضيحة يمكن أن تهدد تاريخ وقارك، حمدتُ الله لأن زوجتي وابنتي جاءتا في الوقت المناسب لتخرجاني من هذا العالم، ما آلمني أكثر أن وجود البنت وحدها معي في الشقة لم يلفت نظر أحد، فمن هُم في مثل سني عند بعض العائلات الريفية أصبحوا أجدادًا لفتيات في عُمر ريهام.

في اليوم نفسه عندما نمتُ حلمتُ بها، كانت أنضج قليلًا وأجمل كثيرًا، رأيتها تقترب من سريري وتحاول تقبيلي، وأقسم لك أنني ما شعرت بطعم جمال مثلما شعرتُ في تلك اللحظة الحُلمية، والتي لم تحدث في الواقع أساسًا، لكنها أسكرتني ودوختني، صحوت من النوم، وكان الوضع شديد الحرج، فقد احتلمتُ مع الفتاة أثناء نومي، وهو الشيء الذي لم يحدث منذ سنوات بعيدة، أنا، أستاذ الاجتماع الذي أُدرِّس للطلبة النظريات الأربع، ومنذ ربع قرن ناقشتُ رسالة الدكتوراة متخذًا دوافع الفعل في المجتمع مادة علمية لها، كنتُ ساذجًا ولا أفهم شيئًا عن دوافع الدوافع، آسف إذا تسربتْ بعض المفردات العلمية الجامدة إلى كلماتي، فهذه هي اللغة الوحيدة التي أجيد التعبير بها.

قلتُ في نفسي، كيف يمكن لأستاذ اجتماع مرموق أن يفكر بهذه الطريقة الوضيعة؟ حاولتُ أن أشغل وقتي بهموم أخرى غير التفكير في الفتاة، ولماذا تجميل الكلمات؟ بالأدق، التفكير في ممارسة الجنس معها، كانت طريقة تناسب شخصًا متشردًا وفوضويًّا أكثر مما تناسب أستاذًا جامعيًّا، دعنا من هذه النقطة، فقد كنتُ أنساها كلما طلع النهار وبانت معالم الأشياء، أصبحتُ أفكر ليس فقط في مواعيد حضورها، بل في الذهاب إليها، فلذلك لذة مختلفة، مرة واحدة فعلتُها، أخبرتني بعنوان إقامتها ذات زيارة مسائية، قالت إنها تسكن على حزام الدائري، والدائري طويل يلف حول القاهرة كلها، عندما وصلتُ إليها رميت بالحصى على نافذتها مثل أي مراهق، اقترحتُ على ريهام أن نخرج في فسحة معًا، وبالفعل، مررتُ عليها بالسيارة وذهبنا إلى الملاهي، تلك الألعاب التي تصل لارتفاعات أعلى من قبة الجامعة،

جهزنا حقائب صغيرة وملأناها بساندويتشات تناسب رحلة لمدة نصف يوم، لم أركب معها أي لعبة، جلستُ بجوار الحقائب أتفرج عليها، بالأدق، أتأمل انطلاقها وتحررها بافتنان، فتدوي في أذني الأغاني والأشعار القديمة ومثل هذا الكلام، لم يكن هناك أي إنسان يمكن أن يشك فيَّ، فمنظري لا يخرج أبدًا عن أب يراقب ابنته.

رغبة حارة لذيذة وشعور كثيف بالحنين.

لا أعرف هل رحتُ في غفوة بقصد كي أحلم بها، حمدت الله أنني أفقتُ من غفوتي قبل أن أبتل كما حدث لي في المرة الفائتة، وقبل أن أستغفر عن أفكاري الغريبة وأتصرف مثل أي أب عاقل، قلتُ في نفسي، لماذا كلما جاءت سيرة ريهام جاءت معها مفردة «حرام» كيف يمكن أن أخترع طريقة تفكير جديدة وليس مجرد الاستمرار في نقد طريقة تفكيري القديمة فقط؟

كانت فكرة الذنب هي أكثر ما يشغلني، الاعتقاد بأنني شخص لديه شكل إنسان وروح ذئب، وبدلا من أن أشعر بالذنب فعلتُ العكس، أخذتُ أبحث عن المبررات في كُتب الأحياء لتبديل الصورة النمطية المأخوذة عن الذئب، أبحث عن أي جُملة أو فقرة تقول أن ما أفعله شيء رائع وجميل، وأنني لستُ على هذا القدر الكبير من السوء.

ذكرتني هذه البنت الضئيلة بأشياء توقفتُ عن التفكير فيها منذ زمن طويل، نسيتها وأصبح استعادتها بنفس الإحساس مهمة بالغة الصعوبة، مثل: أهمية شفتيها في الإضاءة الخافتة، أو لمعة شعرها كالبرونز حين أملسه، أو سحب أناملي فوق أناملها وتعشيقهما، الضغط بالأكف حين تزيد ضربات القلب، وإفلاتهما حين يصل الضغط إلى أدنى مستوى.

وبدأتُ أسأل زوجتي أسئلة لا تتوقعها، فتقول: «لقد سألتني مثلها في الماضي، لماذا لا تود أن تنتقل معي إلى المحطة التالية؟» ولا أستطيع الإجابة.

اجتاحتني رغبة قوية في كتابة الرسائل الغرامية بالطريقة القديمة، قلم حبر وبجواره زجاجة المحبرة، ورقة ملونة لها رائحة الزهور، رسالة لا يكتبها برنامج الوورد باختياراته الجاهزة، ورقة بريئة مزينة بقلوب حمراء وأجنحة عصافير، تحفظ مهارات الخطوط وتوتر الكلمات، ثم، ثم ماذا؟ أضعها في مظروف وألصق فوقها بلعابي طابع بريد عليه رأس ملكة أو سفينة أو ملك قديم يمسك ببندقية، وبعد ذلك أبحث عن صندوق بريد لأسقطها، ثم أنتظر الرد، أنتظر شخصًا يركب موتوسيكلًا ويعلق فوق كتفه حقيبة لها سير وإبزيم، ينادي «بوسطة» فأتوتر وأنا أنزل السلالم مهرولًا دون أن يلحظ أحد.

خفتُ بشدة من الوصول إلى المحطة التالية، خفتُ من أن تصبح بشرتي جعدة ومنهكة كبشرة فيل عجوز، قلتُ لنفسي، وهل يمنعك خوفك من الوصول إلى المحطة التالية؟ سيحدث ذلك لا محالة، ستتقاطع التجاعيد فوق خديك عندما تبتسم، سيملأ الشعر أذنيك وأنفك ويقب حاجباك عن وجهك كلما امتعضت، كثيرة هي الأشياء التي ستدعوك للقرف من نفسك في المستقبل، وعندما تريد أن تداري كسوفك من منظر حاجبيك البشعين ستبتسم، وهنا تحدث مصيبة أكبر، فلأن ما يضايقك كثير، ستبتسم طوال الوقت، وتصبح مثل العجائز الذين يعتقد من يراهم أنهم يستدرون التعاطف بتبسُّمهم الدائم، أو أنهم لفرط ضعفهم وثقل سمعهم يفضلون عدم إصدار ضجة بكلامهم.

وصلتُ في تلك المرحلة إلى تضارب في التفكير، كأن في نفسي جوقة من المنشدين كل واحد منهم يعزف مقامًا صوتيًّا مختلفًا عن الآخر.

لم أعد أستطيع كتابة المحاضرات، اعتذرتُ خمس مرات لناشر كتبي العلمية، حتى كشوف الطلبة الخاصة بحضور الامتحانات حدثت بها أخطاء شنيعة، أصبحتْ قدرتي محدودة على مقاومة تلك الطفلة والإفلات من أسْرها، ذهبتْ بي بعض الأفكار إلى تصورات غير معقولة، فمثلًا، اتخذتُ لأكثر من مرة قرارًا نظريًّا، أنني يجب بأي حال أن أتزوج هذه البنت، لكن شيئًا توهج في رأسي سبَّب لي رعبًا إضافيًّا، فلو علمتْ زوجتي بما يدور في نفسي ستُعيد تقييمي من جديد، تخيل، رجل في الخامسة والخمسين مثلي، من السهل جدًّا إعادة تقييمه بطريقة سلبية، لم تكن فكرة زواجي الثاني مغرية بشكل كافٍ، فروشتات أطبائي تُنبئني بوضع غير مُريح، ضعف في القلب بسبب الضغط ومشكلات في الرئة بسبب التدخين، وكله كوم ومشكلات البروستاتا المستجدة كوم آخر، حتى قلتُ لنفسي أثناء تناول العلاج ذات مساء، لم يبقَ منك إلا لسان يحترف التمنِّي، فهل ترى يا دكتور أنني بالفعل صرتُ كذلك، مجرد شبح أو ظل لقدرات كانت موجودة، هل انتهى أمري بالفعل وهذه هي مرحلة حلاوة روح تعافر، حتى ولو افترضنا ذلك، من أين تأتي هذه الرغبة الكبيرة؟ رغبة جامحة مثل موجة لا أعرف أين ستستقر.

عُدتُ أقول لنفسي مرة أخرى، هل ما يحدث لي هو مراهقة متأخرة؟ أريدُ أن أطيل من مساحة المنحة العمرية، أغزل حياة مُصاغة من الجمال الخالص، ولتذهب كل المشكلات والتوترات والقبح إلى أحد غيري، إلى شخص آخر لديه متسع ليصوِّب أخطاءه.

لا يملأ النوم جفنيّ وأغطُّ في سلام إلا وهي بجواري، أحيانًا تتكور وتنكمش حتى تجد لنفسها مَنْيَمًا في تجويفي، حضني، وأحيانًا أخري ذراعاها الدافئتان حول عنقي وأصابعها في شعري، أشم في فمها رائحة سجق وحليب أطفال، وفي شعرها عطر طيَّار ورائحة طمي حديث الحرث، ومثل كل الأحلام السعيدة لم يشعر بذلك أحد غيري، عندما استيقظتُ في الصباح رأيتُ أثر رأس ثالث على المخدة بيني وبين زوجتي.

في أغلب الليالي كنتُ أتمنى أن أحمل ريهام فوق كتفي وأجوب بها العالم، أتوق إلى دنيا جديدة لا توجد بها مسؤوليات وجداول امتحانات، كنتُ سأطعمها في فمها، كم تمنيتُ أن أطعم فتاة في فمها وتعض أصابعي، مثل هذه الحركات الساذجة تأخذ عقلي، أو نتزلج، لماذا لا نتزلج فوق جبال جليدية، مؤكد أن وزني المناسب لطولي سيجعلني أستمتع معها، ولعبي للتمارين السويدية الخفيفة كل صباح سيجعلني رشيقًا في عينها، ستُقلص مثل هذه الأشياء فرق السن الكبير بيننا، مؤكد ستقلصه.

بحكم تخصصي في دراسة المجتمعات كنت أعرف بعض الحكايات الحقيقية العجيبة المرتبطة بالعلاقات، تحضرني منها الآن سيرة عالم اجتماع شهير من أصحاب النظريات الأربع المؤسِّسة، أَحَبَّ خادمته فتزوجها، وأرادتْ زوجته أن ترد له الصفعة فتزوجتْ خادمَهُ أثناء إلقاء العالِم محاضرة في برلين، فما كان منه إلا أن غيَّر نظريته في علم الاجتماع بسبب هذه الواقعة، وكتب بالحرف الواحد في أجندته العلمية «إن التغيرات في المفاهيم الأخلاقية مفيدة لتطور المجتمعات، فهي تساعد على معرفة ما يدور في أنفس أفراد المجتمع كما هو في

الحقيقة، وليس عن طريق كلمات زائفة يرثها الفرد عن أسلافه، وقد أدى ذلك لأن يصبح الإنسان في الدول المتطورة أرقى من نظيره في المجتمعات التي تدَّعي بأنها محافظة».

ناهيك عن التفكير في ابنتي كعامل ردع نَفسي، تلك الكتكوتة الصغيرة صاحبة الصوت الخافت، كيف أتخيل بأن شيخًا بأنف مفلطح ووجه منمَّش مثلي يفكر فيها بتلك الطريقة البشعة؟ فذلك أذى نفسي لا يمكنني تجنب التفكير فيه، متلازمة لا أعرف كيف أخرج من دائرتها المغلقة، أفعل أنا ما يحلو لي، وفي الوقت نفسه لا أقبل أن يحدث ذلك لابنتي، سأكون أول من ينتفض ويريد أن يقتص من ذلك الشيخ المتصابي، هل تأخذ بالك يا دكتور؟ فهذا الشيخ بشكل ما هو الشخص الجالس أمامك الآن.

بسبب تلك الفتاة المفعوصة أصبحتُ أتأمل نفسي أكثر من السابق، جلد يدي الذي صار بلون القهوة، أصابعي التي لا أعلم لماذا تورمت كأنها منفوخة بالماء، شعر صدري الذي ابيضَّ نصفه، صرتُ أُدخلُ القميص في بنطلوني من الخلف مرات كثيرة أثناء المحاضرة، من المؤكد أن ذلك دليل على انحناءة بسيطة استجدتْ في عمودي الفقري؟ سألتُ نفسي ولم أعثر على إجابة شافية بخصوص هذا الأمر، وقع لي ضرس وسنتان، وبدأتُ أفكر في تركيب طقم أسنان مثلما فعل أبي وهو في مثل سِني، وتذكرتُ أحد أعمامي الذي مات وهو في الثالثة والأربعين، كنتُ أراه رجلًا كبيرًا يليق به الموت، ماذا حدث لي إذن؟ لماذا أتعامل مع نفسي كأنني تخرجت في الجامعة أول أمس؟

عندما عدتُ إلى زوجتي وأنا على هذه الحال تأملتني طويلًا، درستني بنظرة واحدة، فعرفتْ على الفور أنني أخونها، ولو في الخيال، اقترحتْ عليّ أن نترك العالم كله ونسافر في رحلة إلى الإسكندرية، قالت ذلك عندما لاحظتْ اضطرابًا في سلوكي، وزيادة ملحوظة في حديثي عن الجنس بمناسبة وبلا مناسبة، قلتُ لها، وهل سنسافر إلى الإسكندرية في يناير؟ قالت أنها أجمل من الإسكندرية في أغسطس، لم تمهلني الوقت حتى أحدد موقفي، اعتبرتْ اقتراحها فرصة لتغيير الجو، لم أحدثها عن الطفلة الصغيرة التي أفقدتني صوابي وطيَّرتْ عقلي، خبأتُ البنت تحت جلدي لأتخيلها وأنا مع شريكتي الحقيقية، بالأدق، كانت زوجتي هي النسخة الواقعية التي تعمل موظفة لدى خيالي.

عندما توصلنا لاتفاق السفر حزمنا أمتعتنا وأجَّرنا شقة لليلتين، في القطار تبددتْ كل أحلامي عندما نظرتُ في حقيبة ملابسنا، فوجدتُ مراهم ونوعيْ قطرة وفوارًا ومضادًّا حيويًّا، حاولتُ استبعاد تلك الصيدلية المتنقلة ودفنها تحت أي فوطة، لم أصدق أن زوجتي أصبحتْ هشة لدرجة الاحتفاظ بكل هذه الأدوية، لكنها فاجأتني، وليتها ما فعلتْ، بأن هذه كلها أدويتي أنا.

اشترينا وجبة سمك قبل أن نصعد، عندما وصلنا إلى الشقة غنَّت لي بصوتها الناعم أغنية «أنت الحب» كانت تعرف أنني أعشقها، لكن شيئًا ما اختلف هذه المرة. فقد تذكرتُ أننا قضينا في الإسكندرية أسبوعًا من شهر العسل، كنتُ في الخامسة والثلاثين وهي تصغرني بخمس سنوات، والآن، صِرتُ في الخامسة والخمسين وهي أيضًا تصغرني بخمس سنوات، فروق كثيرة بين الزيارتين، أصبحنا نرتدي

ملابس أكثر، نبحث عن الكلمات ونحن نجلس في الشرفة وننظر باتجاه البحر، نتكلم عن المارة في الشارع دون أن نكون بينهم، نتحدث عن أشخاص فارقوا الحياة منذ عقود وكأنهم ما زالوا أحياء.

بعد أن أكلنا ارتدينا ثوب الحكمة، والتي هي بديل طبيعي عن ممارسات الحياة العملية، أخذنا نثرثر ونتكلم عن سِيَر الأقارب وهواجس الحياة، قبل أن يغلبنا النوم حاولتُ، وحاولتْ معي، غفونا ونحن نحاول، كأننا تعشينا بالأفيون وليس مجرد وجبة سمك.

جاهدتْ زوجتي، والحق يُقال، بشتى الطُرق، أن تُطمئنني على نفسي، عندما باءت جميع المحاولات بالفشل تجولنا عبر تاريخ حياتنا المشترك، أيام الخطوبة ومرحلة ما قبل الزفاف، لا أعرف كيف توصلتْ إلى احتياجي لمثل هذه المراحل المبكرة؟ كأن أحدًا أخبرها بأزمتي العاطفية المتأخرة، كانت تحمل حقيبة في يدها لم أعرف محتوياتها إلا بعد وصولنا، عندما فتحتها تسلل منها مزيج من عطور مختلفة، تداخُلها يجلي الذاكرة بالورد والبخور ورائحة الأوركيد، أخرجتْ منها زجاجات صغيرة في حجم عقلة الإصبع، وأكياس حناء عطرية، وحجارة سوداء لتنعيم الأقدام، فيها خرابيش هشة ألين من حجر وأنشف من إسفنجة، حملتْ هذه الأشياء مُضافًا إليها «بُرنس» أبيض ودخلت الحمَّام، خرجت بعد قليل وهي تفك كعكة شعرها بدبوس خشبي كبير سحَبته من رأسها.

بالتأكيد يا دكتور أنت لا تحتاج لأن أشرح لك ما حدث، فكل ما فعلتْه زوجتي كنتُ أحلم به مع ريهام، كيف عرفتْ؟ لا أعلم، قلتُ في نفسي، ربما أحسَّتْ، لكن شغلني شيء أهم، هل يمكنني أن

أفعل ما تحلم به هي؟ وجاءت الإجابة غير دقيقة، فمثل هذه الأشياء مربكة جدًّا، إذ إنها لا تتحقق إلا عند اختبارها، وفي الوقت نفسه لا يمكن الحديث عن نجاح العملية قبل إجراء هذا الاختبار، بين برهة وأخرى كنتُ أدفن رأسي في صدرها، ليس لأن ذكريات حُلوة مرت أمامي، ولكن لأتخيل أنها ريهام وليستْ زوجتي.

بدأتُ في المقارنة بينهما رغمًا عني، أي والله رغمًا عني، شيء لا إرادي جذبني إلى ملامح الطفولة والبراءة في وجه ريهام، خدها الكلثومي وأسنانها المفلوجة غير المتساوية، قدرتها الغائرة على غرز عينها في عيني، مَلَكَتها العجيبة على، على ماذا؟ على الاستسلام، على اللا قدرة، السكون والطمأنينة، هل تفهمني يا دكتور؟ أشعر في وجودها، مجرد وجودها، بالهدوء والسلام، رقائق من الجمال الخالص مُحلاة بالسُّكَّر، أعرف بأنك ربما تقول الآن: ما هذا الكلام الذي لا يليق إلا بالمراهقين؟ الوصف يعجز معي، لا أستطيع النطق بكل ما يدور في عقلي، هل جرَّبت ذات مرة أن تمرر إصبعك في كوب مربَّى حتى نهايته، بماذا ستشعر؟ أنا أقول لك، تشعر بأن إصبعك بدأ في تذوق المربى قبل لسانك، ضلع ما يربط بين إصبعك ومشاعرك يتذوق الطعم قبل أن يعبر شفتيك، طرق رقيق يدق صدرك من الأمام والخلف، يهزك وكأنه يطلب منك الانتباه الكامل، يغوص بسبب، بسبب ماذا؟ من تلقاء الطبيعة ذاتها، شيء حتمي ما كان له إلا أن يتم دون أن تكتمل رغبتك فيه.

أردتُ ألا يهرب مني ذلك الشعور المُخدر الجميل، كنتُ أعتقد أن اكتشاف الجمال مهمة سهلة، لكن التجربة أثبتتْ ضحالة

تصوراتي وسذاجة حُكمي المُسبق على الأشياء، لا أفهم تصاريف الهوى وتعقيدات الخِلقة، لقد وصلتُ يا دكتور إلى الربط بين هذه البنت الصغيرة والحياة ذاتها، فقد أصبحتُ في مرحلة عمرية لا أفعل فيها سوى التكرارات، كل ما يحدث بالأمس يحدث اليوم، ومؤكد سيحدث غدًا، لذلك خفتُ أن تفضحني حركتي وتصرفاتي، ككلب الصيد عندما يعلقون في رقبته شخشيخة.

آه، كنتُ سأنسى أن أكملُ لك ما حدث في نزهة الإسكندرية القصيرة، ارتدت زوجتي ملابس النوم السوداء، هي تعرف أنني أُفضِّل اللون الأسود عن سائر الألوان، لكنني شعرتُ أن الملابس تسجن جسدها، طلبتُ منها أن تحرره من قيوده، وليتني ما طلبتُ، فقد تحرر الزمن أكثر من تحرر الجسد، مؤكد أنك تعرف ذلك، فعندما تبلغ النساء سنًّا معينة، تسمن بطونهن وتتدلى نهودهن وتتسع أفواههن وتنمو لهن الشوارب، حتى العطور ورسومات الحناء التي كانت تستخدمها لإرضائي، لم تضف أي جديد كما كانت تفعل خلال السنوات الفائتة، ففي أيام زواجنا الأولى كنا اثنين من المجانين، أحلامنا وقدراتنا بحجم، بحجم ماذا؟ بحجم لم يخطر على قلب إنسان، كانت الطبيعة تضغط علينا لننفذ أوامرها، أما الآن فتضغط عليَّ وحدي، مع امرأة أخرى، بنت صغيرة، طفلة، كيف يحدث ذلك؟ والله لا أعرف كيف يمكن لذلك أن يحدث.

انتهت رحلتنا إلى الإسكندرية مثلما بدأتْ، شممتُ عطرًا وتفرجتُ على رسوم حناء وأكلت وجبة سمك، لم يحدث شيء أبعد من ذلك،

جلسنا في قطار الدرجة الأولى وكل منا سارح في أفكاره الخاصة، والتي، رغم كل شيء، كنتُ أعرف أنها مختلفة عن بعضها تمامًا.

ظلت الأمور تتأرجح بين رفض من ضميري واستسلام مربك من جسدي، لم تطل المدة، مجرد أيام قليلات، عدت بعدها إلى الجامعة والمحاضرات، حاولتُ أن أشغل نفسي في جداول الامتحانات وحضور اجتماعات مجلس الكلية، لم تثنيني مثل هذه الحجج عن التفكير، فمخي ليس آلة، عندما أضغط الزر ستتوقف من تلقاء نفسها عن التفكير.

قلتُ في نفسي، اعقل، فما يحدث لك يمكن أن يكون هو النهاية الحتمية لحياة العاطفة الحسيَّة لديك، وما تمر به الآن هو مجرد تغريدة أخيرة لن تستمر طويلًا، شهرين، سنة، خمس سنوات على الأكثر وسيخمد كل شيء. لم أصدق ما توصلتُ إليه، تجاوزتُ رحلة الإسكندرية ومحاولات زوجتي إرضائي، الامتحانات ومناحرات مجلس الكلية على انتخاب العميد الجديد، كل ذلك يمر أمام عيني كأعمدة البرق التي يطويها قطار، والمحطة النهائية أنت تعرفها جيدًا.

فجأة شعرتُ بالخوف، فرغم اعتقادي بأنني جواد صاهل لن يستطيع أحد إيقافه، انتابتني قشعريرة العجائز، تلك الانتفاضة التي يعتقد الإنسان بعدها أنه لن يستطيع فعل شيء ذي قيمة، وأن كل ما تمناه هو مجرد صرخة في وجه الزمن لا أكثر، وعدتُ أتذكَّر ثنيات جسد زوجتي وترهلات عنقها، خشيتُ أن تراني أيضًا على هذه الصورة، مجرد قرد عجوز كثيف الشعر، زوج فقد القدرة على الفعل ولم يفقد الرغبة في الثرثرة، ثم ماذا، ثم تأتي مذلة الرغبة الضاغطة

لتُكمل اللعبة، فالخزي دائمًا من نصيب القدرة وحدها، أما الرغبة فلا تنقطع إلا بانقطاع بريق الحياة.

المرأة لا تتعذب مثل الرجل، أو هكذا أتصور، توصلتُ إلى تلك المعلومة بعد أرق طويل وتفكير، فلديها ما يُشبع رغبتها أكثر مما يفكر به الرجل، لديها الأمومة، أما الرجل، ذلك الكائن المُحير، فلا يفعل سوى أنه يطلب دائمًا فرصة جديدة لإثبات تفوقه، فهو لا يُلقِمُ أحدًا ثديه ليضبط حرارة جسده، دائمًا ملهوف على التقرب من أنثى، كالطفل المصاب بالجفاف حين يريد الماء، لا يستطيع أن يبقى وحيدًا، أرمل، اسمع معي وقْع الكلمة، لا تستسيغها الأذن، أليس كذلك، أما أرملة، اسمع معي مرة أخرى، فهي كلمة مألوفة، نسمعها كثيرًا، فالرجل لا يريد فقط أن يظل بجوار جسد حي يبادله المشاعر، لكنه، ومؤكد أنك تفهمني في هذه النقطة، لا يطلب سوى كرامة جنسية، هذا هو كل ما في الأمر، تُرى، هل خلقه الله ممتد المفعول هكذا، مجانًا؟ أنا لستُ حالة فريدة يا دكتور، فمثلي كثيرون، نظل نحلم بكسر هذا الطوق، نحلم فقط، حتى يتقدم بنا العمر وتصيبنا الوحدة، حتى يشم شخص عابر رائحة نتنة، فيستدعي البوليس لكسر الباب.

فكرتُ في المسألة من جميع الاتجاهات، وصدقني، لم أجد حلولًا في ظل وضعي الاجتماعي الحالي، وأخاف أن أموت من اللا مبالاة، لا أريدك أن تأخذ موضوعي كحالة استثنائية، أو تحاول البحث عن علاج لي بشكل شخصي، فأنا، أستاذ الاجتماع، لا أقوى على تغيير شيء، ليتنا ما درسنا نظريات العالم الاجتماعية، فما فائدة أن نعرف أفكار الآخرين دون أن نستطيع ممارسة عيشتهم؟ ليس لديَّ أي ميول

ميلودرامية، لكنني لا أعرف وصفًا دقيقًا لحالي، أريد فقط أن أبدو طبيعيًّا، تتوافق روحي مع تصرفاتي لا مع ما ينتظره مِنّي الآخرون.

بعد خمس سنوات سأكون في متناول سن المعاش، ستتعقد المسألة أكثر، سأصبحُ عبرة لمن هم في سن الأربعين مثلًا، وتلك مصيبة أخرى، لا أتصور أبدًا يا دكتور أن أصبح عبرة لرجال ابيضَّ نصف شعرهم، ولذلك، لا أريد شيئًا يعيق تقدمي، لأن فرصتي محدودة، في ذاكرتي كرة صوف متشابكة ومعقدة، خليط من أمنيات ساذجة لا يتفوه بها إلا عجوز قديم الطراز تجاوزه الزمن، هل تتخيل؟ رجل في الخامسة والخمسين، يحلم بقبلة، يا الله، قبلة والله، حقيقية، أن تلتهمني شفتان نابضتان دافئتان، تقبضان على شفتي داخلهما مثل قوقعة، حتى لا أستطيع الكلام، أتذوق فقط، وأترك العنان لملكة التخيل، عندما أطلب ذلك من زوجتي، هه، تضحك مني، تسخر، سنُعيده من جديد؟! يا رجل، عيب، بص لروح، ومثل هذا الكلام، وعندما أطلب منها، تستأذن في الذهاب إلى الحمَّام أولًا، عندئذ، أغوص، لا يتسق خيالي أبدًا مع امرأة تفكر في أن تقضي حاجتها، تتبول، هل يمكن أن يفكر الرجل في امرأة منشغلة بالتبول؟ كنتُ أغوص في نفسي، في روحي البعيدة المجهولة، فأنا أفكر في العشق فقط،، أما الجو الأُسري الدافئ فيخفي قدرتي على حب الحياة، ويظهر ذلك الشخص الكريه الذي يدَّعي الوقار، ثم لا يتفوه إلا بمقولات متجمدة تصلح لجميع المناسبات: كل سنة وأنت طيب، أخبار الصحة، كيف الحال؟ وجُمل تافهة أخرى من تلك العينة.

كنتُ عندما أطلب منها أن نبدأ تستغرق زمنًا يُذوِّب أدفأ المشاعر ويُخمد أعتى رغبة، هيا، لنذهب الآن، توافق على طلبي بعد عذاب مُستطير، وبعد كل هذا السلخ المستمر لطبقة الرومانسية أتدري بماذا ترد بعد أن تعود من الحَمَّام؟ «خَلَّص»، بعد كل محاولاتي معها لا يعثر لسانها إلا على هذه الكلمة الفقيرة، سمعتُها تكلم أختها ذات زيارة: «الرجل جُنَّ، في الخمسين أنا، وهو يكبرني بخمس سنوات، ويطلب مني، هه»، تنطلق ضحكة منها ولا تُكمِل الكلام، ولكن أختها تُكمل: «وماله» فتقول زوجتي: «وهل نحن صِغار؟ عيب» فترد أختها بنبرة سخرية: «الشيخ في المسجد يقول حرام تمنعي نفسك عنه» في أحاديثهما أصبحُ محل تندُّر، لبانة تقلبانها في أشداقهما، ومثل مُعظم الرجال، تظاهرتُ بعدم سماعهما والانشغال بأمر آخر.

هل تتخيل؟ في غياب الرجل تتبدد كرامته على ألسنة النساء، أي نساء، وإذا سمع بالصدفة فليس من صلاحياته أن يرد، ما توقفتُ عنده في كلماتهما ليس فقط السخرية، ولكن شيئًا آخر أهم، أنه في سن معينة، لا يكون الحب هو مبعث تصرفات الزوجة، ولكن الواجب، وتلك يا دكتور هي المرحلة التي أخشى الكلام عنها، الشيخوخة، رأيت بعض الممثلين وعارضات الأزياء، يلبس الواحد منهم نظارة شمسية تبتلع نصف وجهه ليُخفي تجاعيده المستجدة، التي بالمناسبة، لن تفرق إن كان يتعايش معها أم يتنكر لها، كما يحاول دائمًا أن ينفي أي عيوب في عموده الفقري، وينسى أنه عندما يتظاهر بفرد صدره تقب مؤخرته للخلف بشكل مقزز، هو نفسه لا يدرك مدى نفور الناس منه، كما يمكنك أن ترى أيضًا عارضة الأزياء بعد تقاعدها، تلف

وشاحًا يُخفي عن الأنظار تجاعيد عنقها، وتزيد على ذلك بأن تلبس حذاء بكعب مبالغ في ارتفاعه، ينتهي بسِن أرفع من لبيسة القلم يُصعِّبُ توازن جسدها، فتبدو بمظهرها هذا مثل بطريق ضل طريق الشاطئ، هل تعرف لماذا يفعلون كل هذا؟ لأن الشيخوخة مرض، مرض ليس له علاج، ومن يكبت رغباته يُضاعِف أعراض المرض، فلا هو فَعَلَ ما يتمناه، ولا أصبح لديه فرصة أخرى ليكرر المحاولة.

ظلَّتْ أفكاري الداخلية مجرد هواجس، حتى جاء يوم شديد الحرارة، زارتْني فيه ريهام، لعبتْ في حديقة فسيحة أمام شقتنا، فوقفتُ في البلكون أتفرجُ عليها، كانت تجري وفيها تتدفق كل حيوية الحياة، بعد أن أنهكها التعب صعدتْ إلى الشقة، صافحتني وقالت يا عمو أو يا أونكل، شيئًا من هذا القبيل، كانت يدها صغيرة ونابضة، مررتُ أصابعي على عنقها، وعاد إليَّ إحساس قديم كنتُ قد نسيته، أو أوشكتُ على نسيانه، الإحساس بالجمال، ليس جمال البنت فقط، لا أنكر أنها كانت جميلة، لكن ما أقصده هو روعة أن يشعر الإنسان أنه يتفاعل مع جمال حي، سِحر دافئ ينبض، لا أنكر أنني خفت، أنا، أستاذ الاجتماع منذ ربع قرن أخاف من طفلة في الرابعة عشرة، خفتُ أن يكون ثمة سوء فهم قد حدث، راحت البنت ترسم دوائر بشعرها حول إصبعها، لا أعرف في تلك اللحظة إن كانت قد فهمت شيئًا معينًا عندما لمس جلدي جلدها، تحرَّك خيالي نحو شيء لا أفهمه، هل تدرك تلك الطفلة أن مفهومي عن السعادة أصبح مرتبطًا برؤيتها؟

عندما سحبتْ البنت يدها من يدي لا أعرف بماذا شعرتْ، أو في ماذا فكرتْ، هل هو دلال أم حياء أم ارتباك، وما المانع أن يكون مزيجًا

من كل ذلك؟ لكن كل ما أستطيع قوله عندما أفلتتْ يدها وابتعدتْ، شعرتُ بأن شخصًا ما نزع باروكتي عن رأسي، فصارت عيوبي مكشوفة للجميع، وعُدتُ أبحث عن منظر تستريح عليه عيني.

من الواضح أنني كنتُ أغفل الكثير من الحقائق عندما فكرتُ في البنت على هذا النحو، فأنا شخص خيالي، لا أقيم وزنًا كبيرًا لما يحدث في الواقع. في الواقع، أنا أكره هذه الكلمة، صنعتُ في خيالي مشهدًا خُرافيًّا، فاض رأسي بالحيوية والنشاط، وتصبب العرق تحت قميصي، كل حركة ندتْ عنها كانت تُمتع العين وتثير الخيال، في ذلك المشهد صار لديَّ ألف أنف أشم بها الرغبة، اختلط في عقلي كل ما أريده وينقصني، تودد، إغراء، رقص، نِكات، مخزون اللغة لديَّ متواضع ولكن المفردات فجأة صارت طازجة، تقفز وتتسارع فقط عندما أرى البنت، عبارات فاتنة خلابة، جُمل اكتشفتُ أنها حبيسة داخل جدراني دون معرفة سابقة بها.

كانت بيننا مسافة كبيرة، رغم أننا، في عقلي، ملتصقان، بعد أن أفقتُ من غفوتي لم أستطع الفصل بين ما تمنيته وما حدث بالفعل، تمامًا كمن يمزج بين الماضي والحلم، كل ما أتذكره أن الوقت كان ليلًا، والنسيم يلعب بين حركة و سكون.

من الخارج، وأمام الناس، كان كل شيء على ما يرام، ولكنني من الداخل أكاد أحترق.

جلستْ معي ابنتي فشغلتني عن ريهام لبعض الوقت، طلبتْ أن ألعب معها كوتشينة، قلتُ فرصة جيدة لنسيان ما حدث منذ قليل،

فردتْ أوراق اللعب أمامنا على الأرض، الولد والبنت والشايب، سألتني ونحن نوزع الورق:

«يجب أن يحذفوا هذا الشايب من اللعبة».

«لماذا يا حبيبتي؟».

«لأنها لعبة للأطفال، أو للشباب على الأكثر، فما دخل رجل عجوز بها؟».

وصلتْ الرسالة.

لملمنا الورق، في المساء جاءت أمها، قالت:

«البطاطس بالخُضرة في الثلاجة، سخنها إن جُعت أثناء السهرة، وعلبة التوابل بجوار عبوة القهوة، رش على الجبن القريش زيت زيتون، عندك في فرن البوتاجاز، وهناك بيضة مسلوقة منذ الصباح في الدُرج، بجوار مضرب البيض، قشرها».

اكتفتْ بهذه الملاحظات ثم ذهبتْ لتنام، بعد قليل لحقتْ بها ابنتنا، بعد أقل من ساعة أصبحتُ وحيدًا، أحدق في الظلام من البلكون، تختلط في أنفي رائحة الورود بغبار التوابل برائحة أرض زراعية تتفصد منها البراعم.

عثرتُ بعد تفكير طويل على رادع غير تقليدي، سألتُ نفسي، هَب أن البنت أصبحتْ لك بأي طريقة، فهل بإمكانك إشباعها؟ وللإجابة عن مثل هذا السؤال كان عليَّ مراجعة مشاعري بدقة، تخيلتُ المرات الأخيرة التي فعلت فيها ذلك مع زوجتي، لم تكن القدرة بطَّالة، ولكنها أيضًا لم تكن رائعة، فأنا لا أدخن أكثر من عشر سجائر في

اليوم، أمارس تمارين رياضية خفيفة كل صباح، آكل بطريقة صحية وطعامي لا يخلو من الخضراوات والفواكه، لا أستخسر البنزين في تشغيل مكيف سيارتي لأغلق الزجاج وأبتعد عن عوادم الطريق، أنام ثماني ساعات يوميًّا بشكل مُتصل دون أرق، أحرص على هندامي ومظهري فأبدو بذلك أصغر خمس سنوات من سِني الحقيقية، وربما بثماني سنوات، أمشي كل يوم كيلو مترًا صباحًا ومثله في المساء، مشكلة واحدة فقط شكوت منها للطبيب الاختصاصي بمستشفى الجامعة، قلت له إنني لم أعد أستطيع التبول إلا واقفًا كالحصان، فابتسم وهو يكتب شيئًا في ورقته، ثم رفع رأسه بعد مدة وقال «مشكلات الكُلى عندما تتواطأ مع كسل الكبد» وإذا نظرنا إلى كل هذه الأشياء مجتمعة، سنستخلصُ قدرة متوسطة أفضل قليلًا من سن الخامسة والخمسين وأقل كثيرًا من سن الشباب.

أنا ما جئتُ إليك إلا لتفيدني يا دكتور، فحتى الآن البنت تأتي إليَّ في المساءات، تقتحم صمتي وتكلمني، تقول يا عمو أو يا أونكل، شيئًا من هذا القبيل، وحتى الآن لا أستطيع التعامل مع جيوش الرغبة التي تزحف بداخلي وتأكل فيَّ.

«هل أنهيتَ حديثك أم لا يزال لديك ما تقوله؟».

«اعتبرني قلتُ ما عندي يا دكتور».

مثل كل زيارة، ابتسم الطبيب للأستاذ الجامعي وقال:

«أنت كلاسيكي يا دكتور، تمتلك أسلوبًا في الكلام ولديك خيال، لذلك تهول المشاعر».

«أهول!».

«أنت في الخامسة والخمسين، أي تُعتبر شابًّا بالنسبة لي، وأريدُ أن أقول لك شيئًا من خلال خبرتي بالحياة، الرغبة لا تترك الرجال إلا في القبر، والعمر كلما طال تسير الرغبة في طريق الحلم».

«لا أعرف ماذا تقصد بـ طريق الحلم؟».

قام أستاذ الاجتماع وعاد إلى مكتب طبيبه بعد أن زادت الإضاءة بشكل ملحوظ، كان البرنامج الموسيقي لا يزال يذيع كونشرتو البيانو الثاني لرحمانيوف، موسيقى حالمة كأنها خيط حليب يسقط راقصًا من السماء، شبك الطبيب أصابعه وأرسى كوعيه فوق سطح المكتب:

«أقصد أنه لا توجد ريهام أصلًا».

ابتسم ابتسامة أمير صرُع في مبارزة، وأدرك ببطء أن ما مضى لا يمكنه أبدًا أن يعود.

«ماذا تقول؟».

ارتجف أستاذ الاجتماع كأن موجة صقيع شملته، تبدَّل في جلسته أكثر من مرة حتى سمع صوت طبيبة مرة أخرى:

«لأنه لا يوجد جمال خالص».

مد الطبيب يده إلى مُشغل الموسيقى وقام برفع الصوت قليلًا:

«كل منا يا دكتور لديه حاسة خيالية، يُشكل منها ما يناسب خِلقته، وإن لم يوجد ما نتخيله، فسننتزعه من اللا شيء، نخلقه على هوانا، صدقني، لا توجد في هذه الحياة أي فتاة بتلك المواصفات، لأن خيالك هو الذي أنبتها».

قام أستاذ الاجتماع وابتعد عن المكتب، وجد أمامه بابًا، أخذ يفكر لوقت أطول من اللازم ويسأل نفسه، هل هذا هو الباب الذي دخلتُ

منه أم أنه كان بابًا آخر؟ خفتتْ موسيقى رحمانيوف شيئًا فشيئًا، قام الطبيب ومد يده إلى مريضه، فصافحه الدكتور بعد مدة وهو سارح، شدَّ الرجل الكبير على يد الرجل الذي في طريقه إلى الكِبَر وقال:

«لا يوجد لديك ما يمكن أن يُقلق أو يُخيف، أنت إنسان طبيعي، طبيعي جدًّا، كل ما هنالك أنك أصبحت أكثر رقة فتحاول أن تتجنب ضجيج العالم، وتبحث مثلما كلنا نبحث، عن الجمال الخالص».

السعادة المسروقة

«وهل الموت يُعانَد يا عاشور؟
فقال وهو يحني رأسه في حياء:
الموت حق، والمقاومة حق»

نجيب محفوظ - الحرافيش

بعد ساعة من السير المتواصل لم نعثر على أثر لزرع أو سبيل ماء، ولم نسمع إلا نباح كلاب.

مشهد يتكرر كثيرًا في الحياة، لكنه لا يصبح كذلك عندما يُختطف حبيب قبل أن يكمل الأربعين.

«سعيد صاحبك».

صوت زوجتي.

«سعيد!».

الطريقة التي تُنطق بها الكلمات هي التي توحي بالمعنى وتسقطه فى النفس، أما الكلمات نفسها فمُستهلكة، تعاملتُ مع الخبر مثلما تعلمتُ من أبي، لم يكن ينفعل مع الأحداث، يراها من بعيد، كطيور السماء، وكل ما يجري لا يهمه لأنه مرتبط بحوادث الأرض.

كانت ملابسي معلقة فوق مسمار خلف الباب، دخلتُ فيها ونزلت.

حاولت إقناع نفسي طوال الطريق بأنني منشغل بسعيد، لكن في حقيقة الأمر، وهذا ما لم أصارح به نفسي كثيرًا، لم أكن أفكر في شيء محدد، أعملتُ خيالي بطاقته القصوى في تبديد هاجس الموت أو الفقد أو الغياب أو أيًّا كان اسمه، حتى ولو لثوانٍ، فلا يقين لديّ عن مصير الأشخاص الذين يغادرون الحياة سوى أن كل شيء مذكور.

أخفى الطوار أقدامنا المتربة، كدنا نتحمَّص من شدة الشمس، ساعة واحدة، ساعة ونصف على أقصى تقدير، وسينتهي كل شيء.

رفعنا جميعًا أيادينا كمظلة في مواجهة الصهد والحر، تبخَّرت رغبتنا في الكلام، فالشمس الحارقة تجعل مجرد النطق يتطلب جهدًا خارقًا، مع اللهاث ترتجف الكلمات في الحناجر، فمن أراد أن يقول «الطريق طويل» تخرج منه «هيق.. إيل»، ومن أراد أن يقول «البقاء لله» يختصرها الحَر فتصبح «الباء.. لاه»، تلف الأقدام حول بعضها، وتجتهد الأكف بالمناديل لتجفف العرق.

توقفنا لالتقاط الأنفاس، سقطت قطرات عرق وسُمع لهاث، بعد قليل عاودنا المسير مرة أخرى، يتقدمنا سعيد.

مجموعة من الأطفال يلهون، أكشاك بيع السجائر والساقع كانت محط أنظارنا، يخرج البائع من كشكه ليرفع سبابته في استقبالنا، صبيَّة صغيرة تعطيه جنيهًا فضيًّا، يقع منه قبل أن يقبض عليه جيدًا، ينظر إليه وهو يتدحرج، عندما نتجاوزه ينحني الرجل ليلتقط رزقه.

قطع موكبنا الطريق فتوقفت السيارات، شرطي المرور يعترضنا في البداية، أمام الكثرة تتوارى شجاعته، يتخذ جانبًا فوق الرصيف ويسحب النفس الأخير من سيجارته، ثم يتظاهر بأنه هو الذي أعطى الأمر للسيارات أن تتوقف. بعد قليل نَمُرُّ بإشارة أخرى، فيصفِّر شرطي مرور آخر، نخترق أكثر من حارة سيارات خلف سعيد، ثم نعبر إلى طريق أشد قفرًا، فلا أكشاك ساقع ولا دكاكين ولا أطفال، توقف سير الشارع من الجانبين بسبب كثرة المهرولين، وعلت أصوات الكلاكسات.

اعتراني خجل شديد لأنني لم أستطع حضور المراسم من أولها، مؤكد لن يغضب سعيد مني، مؤكد أنه أصبح أكثر ذكاءً، وربما أكثر دِقة في التماس الأعذار لمحبيه.

أمام البوابات الخضراء انشقت الأرض عن امرأة، ثم تبعتها أخرى، وثالثة، فرابعة، كل واحدة تحمل فوق ذراعها رضيعًا، ترفع سبابتها وتقول كلامًا غير مسموع، عندما نتجاوزها يعلو صوتها «حاجة لله على روح المرحوم.. حاجة لليتيم يا عم».

نتوغل في المقابر الممتدة، أقدام بلا عدد تحرث الأرض الترابية، نعبر ممرًّا ضيقًا، وصديقي المحمول فوق الأعناق ينحدر إلى الأمام بزاوية ميل واضحة، أستعيده برغم الحر والعرق، يَمْثُل أمامي بكامل هيئته.

سعيد.

نُسرع به الخُطى أكثر فأكثر، تلتهمنا الأرض، تبتلعنا داخل ثقب مترب لا ينتهي، شريط أبيض من الغبار والجير الجبلي، عبَّدته أقدام المشيعين على مر الأزمان، أمامي ناس وخلفي ناس، والصندوق المستطيل يتأرجح ويتبدل بين المناكب، نمر على ورشة تصليح موتوسيكلات في قلب المقابر، ومعرض رخام وطوب فرعوني يرصّه رجلان ببشرة نحاسية وملابس مهلهلة لا تصلح إلا لأشباح، عبرنا نصبة شاي تديرها امرأة ميتة الملامح، كأنها اكتسبت صفاتها من تعبيرات المشيِّعين، حتى عندما تتكلم، لا يخرج من فمها كلام بقدر ما تُسمَع همهمة تتسرَّب من تحت أسنانها، يجلس بجوارها رجل نحيف، له عنق طويل ورأس صغير كرأس دجاجة، صامت وبلا أبعاد تقريبًا،

كأنه مرسوم فوق جدار المقبرة، بعد دقائق من السير رأيتُ مسجدًا قديمًا مهدَّمًا منه جدار، وفاقدًا لجزء من طربوش مئذنته الحجرية، تطل من فتحاته رؤوس طيور سوداء وتتجول بين أروقته ببطء كلاب صغيرة تشمشم في الأرض.

سعيد.

حضرتُ حفل زفافه ورقصت فيه، اتفقت له مع فرقة المزيكا والسيارة المكشوفة التي لفَّتْ به المنطقة والمناطق المجاورة، كان معترضًا على فكرة الزواج، عازفًا عنه، فما فائدة الارتباط والإنجاب، تَعَلُّق مخلوقات كبيرة بمخلوقات أصغر، ثم تركها في مهب الريح، والسبب مرض مزمن أو أزمة مباغتة أو سيارة سائقها سرحان؟ أو لا شيء أحيانًا، فصديقنا الثالث وقع في بالوعة بعد أن عاد من رحلة عُمرة، حُجة سعيد الكئيبة كانت مقنعة إلى حد كبير، لكني أقف له دائما كاللقمة في الزور، تزوج ولم ينجب، خمس سنوات مرتْ، لم ينشغل طويلًا بالحكاية، سلم أمره لله بعد أن كشف مرة واحدة هو وزوجته عند الطبيب الاختصاصي، لكني لم أتركه، أقنعته أن يُجرّب الكشف في مكان آخر، فالإنجاب هو بهجة الحياة، أخذتُ أعدد له مزايا الخِلفة مثلما يقول الناس، رددتُ كلمات من نوعية: أولًا، ستجد من تلاعبه وأنت شاب، ثانيًا، ستجد من يتحملك عندما تشيب، لم يكن في رأسي ثالثًا، لكنني اخترعتها لأكبِّر له الكوم وأُأثر عليه بقناعاتي، ثالثًا يا سعيد، سيكون هناك من يحمل اسمك، لن يصبح مجيئك للحياة شيئًا عابرًا، اعترض على افتراضاتي النظرية، وألَّف مقولات أخرى مضادة: أولًا، ستتضاعف المصاريف والهموم،

ثانيًا، ربما يموت الطفل ويترك في قلبي أثرًا لا ينمحي من الحزن، ثالثًا، ربما تركته أنا وتشرد من بعدي، تصوراته المتشائمة كانت منطقية إلى حد بعيد، أغلب المقولات المتشائمة منطقية إلى حد بعيد، لم أستأنف معه الكلام مجددًا، عندما لم أستطع إقناعه بالمحاولة مرة أخرى ذهبتُ بنفسي إلى طبيبة أمراض النساء، حجزتُ كشفًا باسمي، ارتابت الطبيبة فطلبتْ من الممرضة أن تدخل معي أثناء الكشف، امرأة بدينة وبائسة تمامًا، عرفتُ في ما بعد أنها كانت زبونة للعيادة، مريضة، ثم تحولتْ إلى ممرضة عندما عرضتْ عليها صاحبة العيادة متابعة حالتها مجانًا، وصرف العلاج لها ولزوجها، عينات متراكمة في دولاب زجاجي يتركها لها مندوبو شركات الأدوية، عندما عرفتْ الطبيبة قصة تأخر صديقي في الإنجاب اطمأنت، أشارت للممرضة بالانصراف، أخذت مني تحاليل وأشعات سعيد وزوجته، طمأنتني وطلبت أن تراني بعد يومين ومعي الزوجان.

من الطريق المترب نزلنا به، ألواح رخام أبيض مرَّتْ أمامنا مثل دورة الحياة، أسماء محفورة فوق الشواهد، كأنها تنادينا:

«رشيدة محمد يس، عائلة زهران 1939.. محمود طه البدري الشهير بحمامة 1977.. مريم فريد حندوسة وأم فريال كامل 1917.. رغدة نجيب الورداني، نسألكم الدعاء 2001».

كل لوح رخامي خلفه عظام، وكل عظام لها ذووها ونسلها وأنسابها بالخارج، تتجدد طبقة الأرض كلما وضعوا رَجُلًا فوق رجُل، أو امرأة فوق امرأة، فتات من البشر يصير مع الوقت غبارًا ندوسه ونحن نفكر في هموم أخرى، وبشر آخرين.

سعيد.

«مَنْ يخلف ما يموت».

رددتها أمامه كثيرًا، كأنني مندوب مبيعات أعلن عن بضاعتي وأريد منه أن يشتري قناعاتي، فالتزم بالتعليمات الطبية، بحذافيرها، الجِماع مرة واحدة كل أسبوعين، أعطته الطبيبة شريطًا دائريًّا بعدد أيام الأسبوع يكفيه شهرًا، وجاءت النتيجة في النهاية مُبشرة، فقد حصل وزوجته على منحة إلهية من لحم ودم، ولد أطلق عليه اسمي، قال لي:

«أنت السبب في وجوده، فلماذا لا يحمل اسمك؟».

فقلتُ:

«أستغفر الله».

هل كنتُ مذنبًا يا سعيد عندما حفزتك على إنجاب الولد الذي صار في العاشرة، تسحبه أمه أمامي الآن، لا يفهم شيئًا مما يجري حوله، اعذرني يا فتى، لم أكن أعرف عندما قطعتُ الكشف لأبيك أنه سيعتذر من الدنيا بهذه السرعة، لكنك بمجيئك، على الأقل، جعلت أباك لا يموت ميتة نهائية.

توقف بنا الموكب، تجمهر الناس حول مبنى له بوابة كانت خضراء، حال لونها إلى لا شيء تقريبًا، أمامها أحواض زرع رمادي جاف.

سعيد.

كنا نتناقش كثيرًا حول سيرة الحياة والموت، ووصلنا لمفاد مشترك بيننا، أن الإنسان حينما يموت تنتقل سيرته من لسانه إلى ألسنة الآخرين، لكنه هو نفسه يتفكك ويعود إلى عناصره المؤسِّسة، إلى

سيرته الأولى، وغالبًا لا يبقى بقوة وتأثير إلا لأسبوع واحد فقط، ثم يخفت أثره، سرعان ما يتلاشى ويغيب عن الأذهان، ينساه من أنجب ومن عاشر ومن أحب، غالبًا لا تُذكر سيرته إلا وهي مصحوبة بأشياء سخيفة، وربما تافهة، أحاديث حافلة بالنزاعات، استخراج أوراق رسمية تُثبت أنه ذهب في رحلة بلا عودة، مرتبه يُصرف كما هو وكأن شيئًا لم يكن، فرغم أنه خُصم من الحياة كلها، فإن مرتبه يُخصم منه الحافز فقط، ستُكبِّر زوجته صورته مع عدم إغفال تعليقها في مواجهة باب الشقة مباشرة، وربما تجمَّع بعض معارفه ليثبتوا فضلهم عليه في الماضي وحسن نواياهم في المستقبل، ويصبح مجرد وجود اسمه شرفيًّا، لا علاقة له في الواقع بالشخص الذي كان.

أثناء سرحاني فرغ التابوت الألومنيوم من حمولته، شخص لم أرَ فمه عندما تكلم، قال في الزحام «واحد، اثنان، ثلاثة، الشيل أمانة» ثم رفعوا اللفافة، لمحتُ فم سعيد، مبيضًا وصامتًا، زلق إلى الحفرة بقوة دفع المحبين، أسرعنا الخُطى، إيقاع أقدامنا غير منتظم مثل رفرفة طيور مرعوبة، دفن الخوف يجب أن يتم بسرعة، خرج بالتابوت صبيَّان مال أحدهما على أذن امرأة مسنة يطلب فلوسًا، فدسَّتْ يدها في عبها ومدتها إليه، لم أسمع منه إلا كلمة واحدة «النفحة» وقال الصبي الآخر «روح المرحوم» فمنحتْه ما فيه النصيب، ثم غابا بصندوقهما الفضي في الممر المترب الطويل.

لم أتقدم وأزاحم للفوز بمكان قريب من صديقي، تركتهم يفعلون به ما يتوجَّب في مثل هذه الحالات، دون أدنى تدخل منّي، لم أشعر

بالخشوع عندما سمعتُ ابتهالات وأدعية شاب ملتحٍ يعطي ظهره للمشيعين، علا صوته فوصلني واضحًا وشجيًّا، لكنه لم يكن مؤثرًا.

عدنا، كيف عدنا بهذه السهولة من دون سعيد؟ دفنَّا خوفنا من الموت ولم ندفن سعيد، كأنها شعائر لنا نحن، ولكن سعيد هو مَنْ وقف فوق المسرح لنتفرَّج في شخصه على أنفسنا.

سعيد.

استسلمتُ لرغبة قديمة في عدم الندم على شيء، حتى ولو كان فَقْد صديقي الوحيد، كنتُ في الخامسة والخمسين، وهو يصغرني بخمسة عشر عامًا، كان دائمًا يسبق اسمي بكلمة «أستاذ» وكنتُ أقول له «سعيد» دون ألقاب.

حدَّقتُ في معنى أن أكون في الخامسة والخمسين وسعيد على مشارف الأربعين، غادر هو وأنا ما زلت هنا، فلم أجد إلا معنى واحدًا، أن منحتنا العمرية قصرتْ أم طالت فهي مسروقة، مسروقة من أبدية الصمت الطويلة، الطويلة جدًّا، نحن نقطة نور ضئيلة وسط سديم لا نهائي، نحن استثناء تسببتْ فيه ملايين الصُّدف.

تقدمتُ المغادرين محاولًا إظهار شجاعة أمام الغرباء، لكن في قرارة نفسي لم أكن متحمسًا للمشاركة في أي شعائر، حتى ولو من باب الواجب، كنتُ أنوي المغادرة بعد الدعاء مباشرة، لكنني تراجعتُ بسبب الشكل العام، لم أُفجع في موته أو أتفاجأ بالأمر، حتى مصيره لم أشغل نفسي به، لأن ما سيحدث له في الغالب لن يخرج عما حدث لغيره، الجميع سيبْلون ويتحللون، لا شك في ذلك، لم تكن فكرة

التركيز مع النهايات براقة ومُغرية، في طريق العودة انشغلتُ أكثر بمصير ابنه؛ المصروفات، التعليم، الملابس، أجرة الشقة، باختصار، كانت تشغلني التفاصيل الدنيوية عما سواها من الأفكار الكبرى.

نحن نعرف الدنيا من قشرتها فقط يا سعيد، اقتربنا من الحياة لكننا لم نبلغها، كأننا لم نعش، ولكن شُبّه لنا، فقط مجموعة من تفاصيل بلا هدف، ملقاة في مستودع الذكريات الذي يتسع لأي شيء.

عاد كل شيء إلى قنواته الطبيعية بمجرد رجوعنا، كما لو أن المتُع ستدوم للأبد، كأن كل شيء ينتظرني مشفوعًا بمحبة الحياة.

سعيد.

عندما عدتُ بغير سعيد حدث ما لم أتوقعه، زادتْ شهيتي ونهمي للطعام، فعندما رأيت فمه مبيضًا وصامتًا، أدركتُ أنه لن يأكل أي شيء بعد الآن، اشتهيتُ في تلك اللحظة كل أطعمة الدنيا، نصف كباب مُقدَّم مع الطحينة الخام، مسبحة سجق لامعة تتلألأ، تستقر باللون الوردي في طاسة كبيرة، تخرج بعد قليل بُنيَّة تنز الدهن، رأيتُ أشياء لا تناسب الموقف ولا المكان، دجاجة كاملة محمرة، رأس بقرة يهشمه طاهي المسمط بالساطور، رجلًا بدينًا ونظيفًا شكله يفتح النفس على الحياة، يشق بالسكين الخبز الخارج من الفرن ويعبئه بكل ما لذ وطاب، بعد التخمة يكون من المناسب، بل المناسب جدًّا، طلب فنجان قهوة على رائحة البُن وهو يُحمص ويطحن، فيطير غباره في الجو يبدد الأفكار المُركبة.

للأسف يا سعيد.

لم يحفزني موتك على أن أتعظ من شيء، بل العكس تمامًا هو ما حدث، حفزني موتك على حب الحياة أكثر، على استكمال سرقة منحتي العمرية كاملة، سامحني يا سعيد، فقد تعشيتُ مع زوجتي في أول ليلة من غيابك عند الحاتي، ثم أخذتُ دشًّا وتعطرتُ، طلبتُ منها أن نقضي الليلة مع موسيقى «أمل حياتي» ولون القميص الذي أفضله، منذ أسبوعين لم نفعل شيئًا، طوال فترة وجودك بالمستشفى، حفزني موتك على أن أفعل لا أن أتعظ، كأني أصبحتُ أحب الحياة بقدرة رجلين، أنا وأنت، لا أستطيع التأكد بأن غيابك أفسد عليَّ شيئًا، ذلك إذا ما استثنينا الساعة والنصف التي قضيناها بلا أي متع في المقابر، ربما كانت العظة الوحيدة التي استخلصتها بعد غيابك، هي أن أعيش كل لحظة كما لو كانت اللحظة الوحيدة التي ستُمنح لي في هذه الحياة.

سعيد.

أرجو أن تسامحني وتتفهم موقفي، العمر محدود، قليل ويضيق سريعًا بالأحزان، أنت تفهمني يا سعيد أليس كذلك؟ كنتُ أعرف أنك ستعذرني لأن قلبك كبير، كنتُ أعرف.

شكر خاص وامتنان للصديق أحمد سعيد
على منح المجموعة الكثير من الجهد والوقت.

المُحتَوَيات

التَّل 9

بائع السخَّانات 51

حكاية حُكيتْ بالخطأ 85

شركة الدخان 117

الجمال الخالص 149

السعادة المسروقة... 175

كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290 /01000405450

وللاطلاع علي كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كتّابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات التواصل الاجتماعي التالية:

KayanPublishing